الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٣٩ — ٣٠ محرم سنة ١٣٥٧ — أول إبريل سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية

فهرس العدد

صفحة			
٢٣٤	فيفي	أقصوصة مصرية	بقلم الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني
٢٤٢	حذار إنك مراقب	لجوزيف بلاكبيرد	بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة .. ...
٢٥٣	ايولاندا — و — فرنشكا أو الحسناء والخيال	لويس جولدنج	بقلم الأستاذ دريني خشبة ... ...
٢٦٨	الصورة المقنعة	للكاتب الانجليزي جيمس ماجوفن	بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب ..
٢٧٤	الجنية العاشقة	للكاتب الفرنسي إميل زولا	بقلم السيد صلاح الدين المنجد . ...
٢٧٨	النافذة	للكاتب الفرنسي بيير لويس	بقلم السيد عز الدين عزوزي . ...
٢٨١	الأعمى الذي ارتد بصيراً ...	للقصصي الانجليزي أدون بو	بقلم نظمي خليل ... ...

فيفي

قصوصة مصرية

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

تلقت « فيفي » نبأ — بالتليفون — بأن في وسعها الآن — إذا كانت لاتزال راغبة في ذلك — أن تزور « الضحية » وتراه وتجالسه وتحادثه . وكانت تتوقع هذه الدعوة التي ألحت في طلبها ، ولكن سرورها بها كان مع ذلك عظيماً . وكانت تغالط نفسها وتزعم أن فرحها إنما هو بشفائه وزوال الخطر عنه . ولم تكن تعرف أن هذه مغالطة ، فما رأت ضحيتها إلا هنيهة قصيرة على ضوء مصباح السيارة وهو ملقى على الأرض أمامها وقد فقد وعيه من الصدمة . وكان معها أخوها — وهو ضابط في الجيش — فأسرع إلى المصاب ليرى مبلغ ما حل به ، وانحنى عليه يجسه وإذا بصوت يقول : « الذنب ذنبه . لقد قطع الشارع من غير أن يعنى بالتلفت والنظر ، ورأيت أنا السيارة مقبلة بسرعة فخفت عليه ودفعت يدي لأرده ولكنه كان قد مضى ... هو هكذا أبداً ... » ومال على صاحبه ثم رفع رأسه وقال : « لا أظنه أصابه شيء خطير ... لعل الصدمة التي أصابته من وقوعه على الأرض أقوى من صدمة السيارة ... على كل حال تعال نحمله إلى البيت ومن هناك ندعو الطبيب »

وجاء الشرطي وهما يحملانه إلى السيارة ورأى بزة الضابط فجنح إلى التساهل ، وساعده على ذلك أن صديق المصاب كان يهوّن الأمر ويؤكد أن لاشيء هناك يستحق وجع الرأس . وكانت فيفي هي التي تقود السيارة فمضت بهما إلى حيث أشار الصديق . وكان المصاب لايزال مغشياً عليه ، فدعى الطبيب وخلا به وشرع يفحصه والصديق معه وفيفي وأخوها في غرفة أخرى يتمشيان ولا يطيقان الجلوس أو الكلام من فرط قلقهما على الشاب المسكين ، وقد كبر في وهمهما من طول الغيبوبة أنه لامحالة ميت . وخرج عليهما الطبيب بعد دهر طويل فابتسم لهما وقال : إن الذي أصاب الرأس طفيف لاقيمة له ، وإن الحدوش الأخرى لا خوف منها ، ولكن الذراع مكسورة ؛ وإنه سيبعث إليه في الصباح بطبيب يجبر الكسر إلا إذا آثروا المستشفى ، ولكنه هو لايرى حاجة إلى ذلك

وانصرف الطبيب بعد أن اتخذ من تدابير الوقاية والعلاج ما رأى أنه لازم ؛ وبقيت فيفي وأخوها زكريا مع طاهر نحو نصف ساعة ، فعلما منه أن اسم المصاب « حمادة » وأنه طالب في السنة الأخيرة من كلية الطب ، وأنه ابن عمه وهو يقضي أجازته الصيفية ضيفاً عليه — أي على طاهر — في الاسكندرية ، حيث يعمل في بنك مصر . وقد سر الأخوين أن طاهراً أبى أن يعد أحداً غير حمادة نفسه مسئولاً عما وقع . وكانت فيفي تحدث نفسها بأن تعرض على طاهر أن تقوم هي وأخوها

بنفقات العلاج ، ولكنها خجلت أن تخاطبه فى ذلك بعد الذى رأته من مروءة نفسه وحلاوة طباعه ، وآثرت أن تشاور أخاها أولاً عسى أن يستطيع أن يحتال للأمر من غير جرح إحساس هذا الرجل الكريم

وكانت فيفى وزكريا أشبه بالصديقين الحميمين منهما بالأخوين ، فقال لها وهما عائدان : « غريب ... لقد استلطفت حمادة ... بمجرد وقوع عينى عليه وهو ماق فى الطريق »

فلم تقل فيفى شيئاً فقد كانت تحس أنها مشفية على البكاء

وعاد زكريا يقول — أو يصيح على الأصح — بعد قليل : « لماذا لم تدومى واحداً ممن لا خير فيهم ..؟ لماذا حطمت هذا المسكين ..؟ »

فقالت : « لو لم أمر بك لأخذك ... لو كنت مضيت إلى البيت مباشرة ... لما حدث هذا ... فظاعة ... أواثق أنت أنه سيفيق من هذه الغيبوبة ؟ »

فقال زكريا : « الطبيب يؤكد .. فلنصدقه .. وسنرى غداً .. اسمعي .. إنى أريد أن نقوم بنفقات العلاج .. إنه طالب وابن عمه موظف متوسط الحال .. وقد دسناه على كل حال وكسرنا له ذراعاً فما قولك ؟ »

قالت : « لقد فكرت فى هذا ولكني خجلت أن أعرضه على طاهر ... اسمع ... تعال نقتسم النفقات ... واسمع ... لا داعى لإخبار ماما ... ألا توافق ؟ »

قال : « بالإجماع .. »

وهكذا كتما الأمر عن أمهما اتقاء لازعاجها من ناحية وخوفاً من أن تنغص على فيفى حياتها اذا عرفت ما وقع

***

وقالت فيفى لطاهر وهى تدخل ووراءها زكريا : « ألم تقل له إننا آسفون جداً جداً لما حصل ؟ »

فقال طاهر بابتسام : « لقد تركت لك هذا ... كان على واجب آخر لهذا المهمل الذى لا يعرف حتى كيف يقطع الطريق »

وتقدمهما إلى الغرفة وصاح وهو يتنحى عن الباب لتدخل فيفى وأخوها : « ضيوف يا حمادة ... افتح عينيك »

وألفت فيفى نفسها جالسة على حرف السرير تبتسم لحمادة فى عينيه ، وقد سرها أن أخاها استأثر بطاهر فقالت : « لا أحتاج أن أقول إنى آسفة ، فان هذا لا يكفى ... فقد جنينا عليك ولا أدرى فى الحقيقة كيف تطيق النظر إلينا وقد كسرنا لك ذراعك »

فنظر حمادة إلى ذراعه وقال : « أوه هذا ... إنى أكاد أعد طبيباً فصدقينى حين أقول لك إنه لا شىء ... ثم إن هذه فرصة لى سأغتنمها »

فلم تفهم فيفى مراده وزوت مابين عينيها فقال : « صحيح ... بعد أن أعود إلى الكلية سأستبدل بها ذراعاً صناعية خيراً من الطبيعية »

فقالت فيفى : « إيه ... هل ... هل ... »

فأسرع حمادة يقول : « لا لأن يدى هذه أصبحت لا خير فيها ... كلا ... بل لأن الأعضاء الصناعية أصبحت من الدقة والإتقان بحيث تفوق

الطبيعية ... مثلا إذا كنت أريد أن أشتغل بتفريخ الدجاج فما علىّ إلا أن آخذ ذراعاً خاصة أتبعها وأطبع وحيها »

فحدقت فيه وفمها مفتوح ... أتراه يتكلم جاداً ... هل بلغ تقدم العلم هذا المبلغ المدهش ... أم هو يمزح ليؤنسها ويصرف ذهنها عما أصابه منها ؟

وسمعت حمادة يقول : « أعرف رجلاً بترت له ساقاه على أثر حادثة ترام ... وكان يحب الألعاب الرياضية فركبوا له ساقين مدربتين على هذه الألعاب ... ويمكنك أن تتصورى بسهولة أنه أصبح الآن وليس أبغض إليه من هذه الألعاب ، لأن ساقيه لاتتركان له يوماً يرتاح فيه من الوثب والجرى وما إلى ذلك

فلم يبق شك فى أنه يمزح ، ولم يسعها إلا أن تضحك وإلا أن تعجب بروحه الواسعة الكريمة

وقالت ، والتفتت إلى أخيها وطاهر:« زكريا ! يجب أن نحتفل بحمادة أفندى فى أول يوم يخرج فيه ... يتغدى عندنا هو وطاهر أفندى ... أليس كذلك ؟ »

فنهض زكريا ودنا من السرير وقال يخاطب حمادة : « اسمع يا سيدي .. هذه الفتاة سريعة النسيان .. لقد اتفقنا أن نكتم الأمر كله عن الأم لئلا تسود لفيفى عيشها .. فليس من المناسب أن تدعوك إلى البيت على الرغم من رغبتنا فى ذلك ، ولكنى أقترح أن تتغدى يوم تخرج فى سيدى بشر .. إلى أن نمهد لاطلاع الوالدة المحترمة على الحقيقة تمهيداً نأمن به الشر الذى نخشاه وإن كنا نستحق أضعاف أضعافه »

ولم تسؤ حمادة وطاهراً هذه الصراحة . ورافهما ما بين الأخوين من الحب وما يتبادلان من الرعاية ، وخطر لطاهر وهو ينظر إليهما أن فيفى كانت خليقة أن تعشق زكريا عشق المرأة للرجل لو لم يكن أخاها

وحرصا على التخفيف فانصرفا بعد قليل ، فقال زكريا لأخته فى الطريق : « هيه »

قالت : « هيه »

قال : « لقد قلتها أولاً »

قالت : « أحسب أن معنى ذلك بعد الترجمة هو ما رأيي فى حمادة ... الجواب مدهش »

قال : « هاتيه »

قالت : « قلت لك مدهش ... : ألا يكفيك هذا ؟ »

قال : « طيب آمنا ياستى ... وأنا مستعد فادهشينى ... تفضلى ... »

قالت : « ماهذه البلادة ؟. قلت لك إنه مدهش.. ميم ... دال ... »

فقاطعها : « أيوه ... أيوه ... فاهم ... بس أريد أن أسمع هذا الجواب المدهش »

فلما كفت عن الضحك قالت : « يا أبله ... إنما أعنى أن حمادة هو المدهش »

فهز رأسه موافقاً وقال : « وأنا من رأيك .. وأحب أن أقول لك أيضاً إنى أتمنى أن أراه لك زوجا »

فقالت : « على مهلك ... على مهلك ... طول

بالك ... ولا تنس الوالدة المحترمة »

فقال : « أوه ... إذا كان هذا هو كل مافى الأمر فدعيه لى ... أنا أدبر المسألة »

* * *

وتوثقت العلاقة بين الفريقين وارتقت من الصداقة إلى الحب — نعنى بين فيفي وحمادة — ولكن الأم ظلت لا تعرف من الأمر شيئا ، فقد كان الأخوان يعلمان أن أمهما تأبى أن تزوج بنتها لواحد من غير أهل اليسار والغنى مثلها . وكانا قد عرفا أن حمادة رقيق الحال وإن كان المرجو — بل المحقق — أن يكون مستقبله خيراً من حاضره . ولكن الأم لا تقبل كلاماً كهذا . وكانا يحبانها ويعز عليهما أن يصدماها أو يخيبا لها أملاً فيهما ، فرأيا أن يستعينا بالصبر عسى أن يتيح الله لهما فرجا

ولاحظت الأم أن الأخوين أصبحا لا يفترقان — ولم يكن هذا حالها من قبل — نعم كانا كالتوأمين لا يعرف ما بينهما إلا الله ، ولكنه قلما يمضى الآن يوم لا تخرج فيه فيفى مع أخيها . فهل ترك زكريا إخوانه جميعاً ... ثم إلى أين يذهبان ..؟ كلما سألت تلقت جواباً من زكريا فيه من الغموض والإجمال أكثر مما فيه من الوضوح والبيان . ويندر أن تزيد فيفى على الابتسام ، وما أكثر ما تلجأ إلى تقبيل أمها واحتضانها كأنما تريد أن تصرفها عن السؤال . وإذا قالت شيئاً كان قولها : « ألا يكفيك للاطمئنان أن أخى معى لا يفارقنى ؟ » ولم يكن هذا هو الذى يقلق الأم وإنما كان يثقل عليها أنهما لا يريدان أن يقولا لها شيئاً ، وكان هذا يثير رغبتها فى المعرفة ؛ ولم تستبعد أن يكون زكريا قد ذهب يساعد فيفى على غرامها فإنها تعرف عظم ما بين هذين الأخوين من الحب ؛ ولكن إخفاء الأمر عنها معناه أنهما يدركان أنه لا يبعث على رضاها ؛ ومن هنا كان قلقها

وكأنما أرادت أن تقطع العقدة بالسيف . أعلنت يوماً أنها قررت العودة إلى القاهرة غداً ؛ ولم يكن زكريا فى البيت فتعبت فيفى فى محاولة إقناعها بالعدول عن هذا القرار ، ولم يجدها أن تبين لها أن الصيف مازال باقياً منه أكثر من شهر ، فتظاهرت بقلة الاكتراث وهزت كتفيها وقالت : « على كيفك .. إذا كنت قد اشتقت لمصر فلنذهب إلى مصر .. وما الفرق ؟ سيان عندى فى الحقيقة .. وأقول لك الحق إنى لم أضجر من الأسكندرية كضجرى فى هذا العام .. »

ومضت إلى غرفتها وقد شق عليها أن تترك الأسكندرية وتترك فيها حمادة . ولم يعزها أن حمادة سيرجع إلى مصر لا محالة وأن فى وسعه أن يرجع الآن أيضاً .. كلا لم يعزها هذا الخاطر فاستلقت على السرير وهى تحيل هذا وما إليه فى نفسها . ودخلت عليها أمها فرأتها ساهمة فسألتها مالها فقالت : « لا شىء .. تعب بسيط .. »

وكانت الأم رقيقة القلب جداً وقد مات لها ثلاثة قبل أن ترزق هذين ، فهى ضنينة بهما جداً لا تطيق أن ترى أحدهما مزكوماً أو مصدعاً أو به فتور ؛ وكان يقلقها ويزعجها أن ترى زكريا يؤثر أن يبقى فى البيت لأنها تتوهم أنه مريض فتروح تلح

عليه أن يخرج ويتنزه ويشم الهواء ويضحك مع الإخوان وينعش نفسه

وقالت لفيفي : « مالك .. لقد كنت قبل ساعة كالوردة النضيرة فماذا جرى ؟ »

قالت فيفي : « لا شيء يا ماما .. تعب قليل .. نزول بالراحة .. اطمئني »

فقالت الأم : « سأدعو الطبيب .. حالاً »

فلم ترتح فيفي إلى هذا وألحت على أمها ألا تفعل ، ولكن الأم أبى لها قلبها الرقيق الضعيف إلا الإصرار ، فخرجت إلى التليفون والتقت في طريقها إليه بزكريا فسألها وقد رأى وجهها الممتقع : « ماذا جرى ؟ »

قالت : « فيفي .. مريضة .. سأدعو الطبيب »

فاستغرب زكريا ، فقد ترك أخته على أحسن حال وقال لأمه وقد ساورته الشكوك : « انتظري حتى أراها »

وأسرع إلى فيفي فقصت عليه ماحدث ، ففرك كفيه وعيناه تلمعان وقال وهو ينهض : « هذا خير ساقه الله ويجب انتهاز الفرصة التي أتاحتها لنا الأم المحترمة .. لقد كنت حائراً جداً وأتعبني التفكير في التماس الحيلة حتى يئست ، فالآن فتحت لنا الأم الباب بورك لنا فيها .. عليك الآن أن تلزمي السرير .. المرض يثقل عليك شيئاً فشيئاً .. وعليّ أنا الباقي »

فرمت فيفي إليه قبلة وعاد إلى وجهها الاشراق والوضاءة

وقال زكريا لأمه : « نعم يجب أن ندعو الطبيب .. كليه وسأذهب أنا إليه بالسيارة .. هذا أسرع »

فكادت المسكينة تقع على الأرض لأنها أيقنت من لهجة زكريا وهيئته أن الأمر جد وأن بنتها مريضة حقاً وإذا كان زكريا قد قلق إلى هذا الحد فياويلها هي ...

وجاء الطبيب — وكان هو طبيب الأسرة في الاسكندرية — وكان روميا هرما ذا لحية كثة بيضاء ، ولكنه دائم البشر والبشاشة ، حاضر النكتة وإن كانت نكتته كثيراً ما يفسدها أو يحجبها عجزه عن التعبير باللغة العربية . ودخل على فيفي ورد الباب وراءه ، فارتدت الأم راجعة وكانت تشتهي أن تكون حاضرة وهو يفحص ابنتها وقرة عينها وحبة قلبها

واستمر الفحص نحو نصف ساعة فكادت الأم تجن وأيقنت أن الأمر أخطر مما كبر في وهمها إلى الآن . فلما خرج الطبيب خفت ناهضة اليه وقد ارتسم القلق والفزع على وجهها وفي عينيها

وقالت له وهي تتناول طيتي سترته بكفيها وتشده منهما : « طمئني يا دكتور »

فقال بلهجة الجد ما معناه : « اطمئني على كل حال ولكن هذا المرض جديد عليّ . لم أتول علاج مثله من قبل . ولست أعرف إخصائياً لهذه الحالة المعينة سوى رجل واحد يجب أن تبعثوا إليه وتستقدموه »

فدهشت الأم وقالت : « مرض لا تعرفه أنت : »

قال مبتسما : « أعرفه ولكني لا أعالجه ... علاجه عند غيري »

فسألته : « ما هذا المرض ؟ ما اسمه ؟ »

قال : « أما المرض فأعراضه كثيرة : اضطراب، خفقان ، حالات متناقضة من النشوة والكآبة ، والسرور والحزن ، تارة يكون المريض أصح من مصارع ، وطوراً يكون كالذي أجريت له عملية جراحية تركته أصفر باهتاً وضعيفاً منهافتاً كالورقة المبلولة ، حالاته وأطواره غريبة وشرحها يطول . وأما اسمه فلا أعرفه بالعربيـة ولكنه بالفرنسية « مال دامور » ، عجلي باستشارة هذا الرجل وثق به واطمئني إلى النتيجة »

وخرج ومعـه زكريا وقال له فى السيارة : « يا صاحبي هذه أول مرة أرتكب فيها هذه الخديعة ولا أدرى كيف أطمئنك . ولولا أنى أعرفكم من زمان طويل وأعدكم كأبنائى لما كان ممكناً أن أجاريك فى هذا العبث ... والآن أرجو أن يكون هذا آخر عهدى بهذا الموضوع وإن كنت أحب أن أطمئن على النتيجة »

وبينما كان زكريا فى طريقه إلى حمادة ليجيء بهذا الاخصائى فى مرض (المال دامور) كانت الأم تحاول أن تتذكر هذا الاسم الغريب الذى لم تسمع به قبل اليوم . ولما كانت لا تعرف لغة أجنبية فان لها العـذر إذا كان الاسم قد طار وأعياها أن تقتنصه .

وجاء الطبيب الاخصـائى مع زكريا ودخلا على الأخت التى كانت تنتفض من الاضطراب والفرح والخوف ، وبعد قليل تركهما زكريا ورجع الى أمه

وما لبث الاخصائى أن خرج فتقدم الى الأم وأنبأها أن الحالة ميسورة العلاج جداً ولكنها تحتاج الى وقت وراحة تامة ...

فسألته : « لقد كان فى نيتنا السفر غداً »

قال : « هذا مستحيل الآن ... ربما أمكن بعد أسبوع أو اثنين ... تبعاً للحالة ... سأعود مرة أخرى فى المساء »

وجعل يعودها مرتين فى اليوم — مرة فى الصباح وأخرى فى المساء ، ولا يمكث فى كل مرة أكثر من دقائق . وظل الحال على هذا المنوال نحو أسبوع فقلقت الأم وتعبت فيفى — أتعبها الانتقال المفاجئ من الضحك حين يكون معها أخوها أو طبيبها إلى الجهامة والفتور المتكلفين حين تدخل عليها أمها ، إذ كلفها هـذا التمثيل جهداً شاقاً جداً وهذا فضلاً عن الاضطرار الى ملازمة الفراش

وأحس زكريا أن الأمر زاد تعقيداً لا سهولة ، وأن المخرج أصبح عسيراً . فليس كل المراد أن تبقى الأسرة فى الاسكندرية وأن يتيسر بذلك لقاء الحبيبين بل أن ترضى الأم بزواجهما

وقالت فيفى لأخيها يوماً : « وآخرتها ؟ »

قال : « الحق أقول إنى لا أدري »

قالت وهى تتجلد : « ألم يبق لهذا الرأس قدرة على التفكير ؟ »

قال : « اسكتى يا فيفى ... لا تزيدينى ألماً ... ما أردت إلا الخير وقد كانت النتيجة ماذا ... هذا الموقف الذى لا نعرف وجه الخلاص منه ... أقول لك أركي الأمر للمقادير ... عسى أن تفتح الباب الذى لا نراه الآن »

قالت : « إنى مستعدة أن أترك الأمر للمقادير

ولكن هذه الرقدة تطير عقلى ... أنقذنى منها على الأقل »

قال : « مسكينة ... »

وخرج يمشى مطرقاً ، ورأته أمه فأقبلت عليه وجرته إلى مقعد وقالت : « اسمع يا ابنى . هذا حال لم يبق لى صبر عليه ولا بد من استشارة أطباء آخرين ويحسن أن يجتمعوا هنا »

فريع زكريا وأيقن أن كل شىء قد فسد ولكن الخوف استحث خاطره فقال :

« لا تتعجلى ... إنك لا تعرفين الأطباء ... ليس كل طبيب صالحاً ... والأولى أن تسألى طبيبنا رأيه فيمن يحسن أن يستشار »

فقالت : « هذا ما كنت أنوى أن أصنع ... إذهب إليه وكلمه »

فذهب إلى الطبيب الرومى فتململ هذا وقال له : « ألم أقل لك إنى لا أحب أن أحشر فى هذه الحكاية ؟ لقد اضطررتنى إلى الكذب وتضليل هذه السيدة الساذجة الطيبة القلب . ثم اضطررتنى أن أشير عليها بالاستعانة برجل ليس بطبيب وهذه جريمة أخرى ، واضطررت هذا المسكين أن يدعى أنه طبيب وهو ليس إلا طالب طب ... والآن تريد أن أدلك على على رجل آخر — طبيب فى هذه المرة — ليساعدنا على الكذب البغيض »

فقال زكريا : « ولكن المسألة ليست مسألة مرض ... إنها كلها فكاهة ... وأنت تعرف ضيق عقل السيدات مثل أمى ... تريد رجلا لبنتها يملك ضياعاً وعقاراً ... وهذا شاب فقير ولكنه صالح جداً ... يحب أختى وهى تحبه ... أنا أخوها ... أكبر منها ... أقرر أن هذا الزواج يجب أن يتم لمصلحة الاثنين ... على الأقل يجب أن يتم الاتفاق عليه حتى يفرغ من الامتحان ... وأنا أطلب معاونتك على خير »

فقال الطبيب : « من رأيى أن أذهب إلى والدتك وأطلعها على الحقيقة كلها بصراحة »

قال : « إنك تنسى أن أمي من الجيل الماضى »

قال الطبيب : « قد تصغى إلىّ إذا كانت لا تصغى لابنها »

قال : « إنى أخشى غضبها وعنادها ولا أطيق أن أرى فيمى تتعذب »

قال الطبيب : « إن الفشل من هذا الطريق خير من النجاح من طريق الخداع ... ثم إنى لا أطيق أن أظل أخادع هذه السيدة الساذجة »

قال زكريا : « وما العمل الآن ؟ »

قال : « سأذهب إليها وأكلمها ... إنكم أيها الشبان لا تأتون البيوت من أبوابها أبداً ... تعقدون البسيط ثم تروحون تبحثون عن حلول مستحيلة ... لماذا تفرض أن أمك ستعارض حتماً فى زواج فيمى من هذا الشاب ... لماذا لم تقدمه إليها وتتركها تفطن إلى مزاياه على الأيام ... ؟ »

قال زكريا : « لأنى أعرف أمى »

قال : « بل لأنك لا تعرفها ... تتوهم أنك تعرفها وتبنى سلوكك على أوهامك ... تعال »

* * *

بعد أن قص الطبيب الحكاية كلها على الأم وهى واجمة من فرط الدهشة قال :

« لقد أدركت أن ابنك لا يعرفك ... هو يظن أنه يعرفك ولكنه مخطئ ... توهم أنك عنيدة

وأنك تجرين وراء المال ... وغاب عنه أنك لاتطلبين لابنتك مالاً بل رجلاً صالحاً ... لأنك تدركين أن الرجل الصالح لايقوّم بمال ، وقد أقنعته بخطئه ... غريب أن أعرفك أنا الغريب خيراً مما يعرفك ابنك ، ولكنه شاب وأنا رجل مجرب ... وأظنك توافقين على أن لى فراسة فى الناس ... والآن صار عندنا الرجل الصالح ... ولكنى أنصح لك بالتمهل حتى تختبرى هذا الشاب بنفسك وتعرفى أهله وتطلعى على سيرته ... على أنى كصديق قديم لكم أنصح أيضاً بوجوب الحرص على كتمان هذه الحكاية ... حكاية المرض والطبيب إلى آخر ذلك لئلا تدور على ألسنة الناس وتصبح مادة للسخرية منكم ... ولا أدري كيف أعتذر لك عما كان منى ولكن حبى لكم هو الذى أفقدنى الرشد لحظة ندمت بعدها أشد الندم ... على كل حال أرانى تداركت الأمر وأصلحت ما اشتركت فيه من الغلط ... سامحينى ... وإلى الملتقى »

ولما أقبل ابناها يعتذران إليها بعد أن انصرف الطبيب ويطلبان الصفح لم تزد على أن قالت :

« خوف الفضيحة فقط هو الذى يجعلنى أبلع هذا العبث منكما ... لقد كنت دائماً أقول إن الأخوين لا يكونان هكذا ... وكنت أخشى عاقبة ذلك ... لابأس ... الأمر لله »

ولكنها ما لبثت أن أحبت حمادة بعد أن عرفته ، فلما أنست فيه منها الميل إليه سألتها عن رأيها فيه فقالت الأم وهى تقبل بنتها : « الحق أنك معذورة ... إنه آية ... فلتة ... الله يوفق »

ابراهيم عبد القادر المازنى

آلام فرتر

للشاعر الفيلسوف جوته الألمانى

الطبعة الجديدة

ترجمها : أحمد حسن الزيات

وهى قصة عالمية تعد بحق من آثار الفن الخالد

تطلب من إدارة مجلة الرسالة

وثمنها ١٥ قرشاً

قريباً :

توفيق الحكيم

فى كتابه الجديد

عصفور من الشرق

قصة روائية كبرى تضع الشرق وجهاً لوجه أمام الغرب ، متجردين عاريين ... من يطالعها يجد المفتاح المفقود لسر الشرق وروحه ...

يطبع الآن بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر فى طبعة محدودة

احجزه من الآن بالمكتبة التى تعاملها

حذار! إنك مراقب

لجوزيف بلاكبيرد

بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعه

كان موعد العشاء في مطعم كلارديج قد حان ، وهو ذلك المطعم الفخم في غرب لندن ، في حي وستمنستر الشهير ، يطل على نهر التيمس وميدان الطرف الأغر ، ويسمع رُوّاده دقات (بيج بن) وهو ناقوس كبرى ساعات العالم . وفي أحد أركان قاعة الطعام وراء أحد الأعمدة البيضاء المموهة بلون الذهب ، جلس رجل من الطاعمين يرقب الموائد الأخرى ويسترق النظرات إلى الجالسين ، ويأخذهم ببصره وهم لا يرونه ؛ ينظر إليهم ويدرس حركاتهم وسكناتهم وهو في نجوة من أنظارهم . وكان الرجل ضخماً ، ذا عينين خبيثتين قد أخفاهما وراء عوينات من الزجاج الأصفر القاتم ، وله من ورائها نظرة ماكرة . وقد جلس أشبه شيء بالسنور الوحشي ، يفتل شاربيه تارة ، وطوراً يمشط بأنامله المرتجفة لحيته الكثة السوداء ، التي كانت لا شك مستعارة

فلما تقدم إليه الخادم بصحن اللحم الغليظ وقنينة الجعة ، ووضعهما أمامه ، وهم بالانصراف ليباشر خدمة غيره من الآكلين استمهله الرجل بإشارة من يده ، ثم أخرج من جيبه ورقة مالية وست رقاع ، وراح يقول للخادم في صوت خافت :

— أترى هذه الورقة المالية؟

فأطرق النادل بإيماءة الاعجاب : أي نعم أراها ياسيدي

فأشار الرجل الغامض إلى ناحيات المطعم فيما وراء العمود الذي اختفت في ظله مائدته وقال للخادم :

— أترى هذه الموائد الست المرصوصة بجانب الحائط ؟

فالتفت الخادم إليها ، فرأى إلى مائدة منها يجلس رجل منفرداً ، وعلى المائدة الثانية رجلان ، وإلى كل من الموائد الأربع الباقية قد جلس رجل وامرأة

فقال الخادم : وماذا تريد ياسيدي من هؤلاء الأضياف ؟

قال الرجل : أريد أن تذهب إلى كل مائدة

تعريف بالقصة

جوزيف بلاكبيرد من كتاب القصة القصيرة المروعة ، وهو نوع من الرواية الحديثة ، اكتسب حق الاقامة في مدينة الأدب . وليس كله وهما ولا خيالا ولا تسلية ، فكثير منه مؤسس على فكرة ورأي ومعرفة عميقة بأطوار النفس البشرية . وكان ستيفان زفايج ، أحد أدباء الألمان العلماء المنتمين إلى أحد الأجناس السامية ، قد وضع قصصاً في وصف الخوف والغيرة والهوى ، تطبيقاً على مبادئ أستاذه سيجموند فرويد ، فلقيت نجاحاً لاستوائها على أسس من الحقيقة الثابتة والأمور المشاهدة . وقد تناول جوزيف بلاكبيرد في قصته « حذار إنك مراقب » التي نشرت في سنة ١٩٣٦ موضوعاً مما له علاقة بعلم النفس المرضي وعالجه بمهارة فائقة ولم يغفل جانب العواطف والاجتماع فجاءت القصة حائزة لشروط التوفيق الفني من حيث العقدة والحبكة وتناسب الأجزاء وتحليل النفسيات الغامضة

منها فتضع رقعة من هـذه الرقاع أمام الجالسين وتقول : « من صديق ! » ثم تعود إليّ ولك هذه الورقة المالية تنعم بها ، أفهمت ؟

فنظر الخادم حوله وهو خائف من عين صاحب المطعم تبصره ، وهو من نظرات الرجل الغامض أخوف ... فلما اطمأن تناول الورقة المالية والرقاع وتولى مسرعاً ليربح المال الذى فى يده ، وراح يوزع الرقاع ، وجعل الرجل يراعيه ويرقبه وهو يمشى من مائدة إلى مائدة

* * *

كان جورج أديكت دراج انجليزياً عائداً من المستعمرات ، وقد أدمن التخدير بالأفيون ، ذلك النبات الرهيب ، باعث الألم واللذة . ولم يكن يفقه معناه حين سمع اسمه ، إلا كمن يفقه معنى المن والسلوى . وكيف له بفهم ما لم يحط به علماً ؟ أما الآن ، بعد أن مضى عليه عشرون عاماً فى نعيمه وجحيمه فما أعجب معنى هذا الاسم وأغربه ! وما أقرعه فى فؤاده لأوتار الحزن تارة ، ولأوتار السرور طوراً ! وما أبعثه لأليم الذكرى مرة ، وللذيذها أخرى !

وكان جورج أديكت دراج لا يزال يذكر ذلك اليوم الذى فتحت له الأقدار فى آخره باب الفردوس والجحيم

كان العصر قد دنا فى مدينة كلكتا فى موسم « المونسون » والجو ممطر مكفهر ، وليس فى طاقة الأرض أن تعرض منظراً أبعث للانقباض والكآبة لعينى أغرب معذب من ذلك اليوم الهندى العبوس القمطرير ، فصادف فى سبيله ، وهو فى أشد حالات الأسى والسويداء ، دكان عقاقير ، وكأنما استحسن صاحب الدكان أن يقاسم الجو فى عبوسه وكآبته ، فتراءى لجورج أديكت دراج أبلدَ ما يكون ، وأثقل ما يُنتظر ؛ فلما أن طلب منه الأفيون أعطاه إياه ، ومن الروبية التى دفعها إليه رد دراهم مضروبة من النحاس قد أخذها العقاري بيده من صندوقه الخشبي . فتحول جورج عن بائع المخدر ولم يصبر عن ازدراده حتى يصل إلى ناديه أو مسكنه ؛ وشعر بعد برهة بتلك اللذة الثابتة المقيمة التى توهم أنها أدخلت على ملكات ذهنه الأسير أتم النظام والترتيب والائتلاف ؛ وأحسّ فى ظلمات نفسه الحزينة الولهى بشىء يشبه الضياء الساكن السوىّ . وعادت إليه تلك الحالة التى يسترجعها الذهن عقب خلاصه من برحاء آلام طالما حاربت نزعات نفسه ، وأخلّت بميزانها . وهكذا قيّد جورج أديكت دراج اسمه فى سجل المدمنين . فلما عاد من الهند إلى لندن ، وهى مسقط رأسه ، لم يستطع الفكاك من أغلال تلك العادة . وقد ألف أن يتناول العشاء فى مطعم كلاردج بعد أن يكون أدخل السكينة والطمأنينة والاعتدال على ملكات نفسه بجرعته المخدرة ؛ وكان فى تلك الليلة يشعر كأنه نشط من عقال ، وقد عهد الأفيون مورثاً للخفة والنشاط ، ولطالما حداه إلى الملاعب والأسواق فاغتبط بجولاته تمتّعَ ، وكان اغتباطه فى تلك الليلة مضاعفاً بفضل ذلك السم الذى ابتلعه ، فجلس يأكل وحيداً ، لا صديقة تؤانسه ولا رفيق يؤاكله ، وكان فى يزة نظيفة على طراز هواة الأفيون يلوح عليه أنه من الخاصة ، ويأنف أن يمس النسيم شعرة من رأسه . فلما التقط الرقعة من فوق المائدة تصفحها فى لهفة ،

فبدا عليه الخوف ، وظهرت فى وجهه دلائل الجزع ، وجعل يشد على شفته العليا بأسنانه يريد أن يمنعها من الارتجاف

* * *

وعلى المائدة الثانية يجلس رجل وامرأة ، فلما وضع الخادم بين أيديهما الرقعة ، كانا فى شغل شاغل بحديثهما عما حولهما ، فلم ينتبها للخادم وهو يضعها . وكان الفتى اسمه فيكو واسم الفتاة بيليس [1] وهما فى مقتبل الشباب ، وكانا حديثي العهد بالحب . ومن سُنَّة الطبيعة أنها منحت الشباب للبشرية ليكون باعثاً لها على الولوع بمحاسن الجنس ، حتى تصبح هذه المحاسن فى عينها أجلى مظهر لروح الجمال ، حتى إذا انقدحت بين الفتى والفتاة شرارة الحب الصحيح لم تزل تعظم حتى تشمل أشعتها جميع الخلق وتضىء الكون أجمع بسناها الباهر . كان يبدو على الشاب أنه طالب علم فى إحدى كليات جامعة لندن ، أما الفتاة فلم ترد على أن تكون ريفية من يوركشير لم ينقض على ورودها شاطىء الحياة أكثر من شهر ، فلا تزال نضارة الخضرة وطراوة الماء وجمال المروج الزمردية ، وصورة السعادة البيتية ماثلة لذهنها . ولكنها كانت ثرثارة ونهمة فى الحب نهمها فى الطعام والشراب ، كما كان فتاها جائعاً محروماً من الاثنين معاً ، ولذا بدا أصفر الوجه بلون العاج هزيلاً ضاوياً ، وتجلت هى غضة بضة هانئة هادئة ، لولا حركة لسانها الذى كان كبندول الساعة لا يفتأ ذاهباً جائياً ، رائحاً غادياً ، بين شدقيها الرقيقين المطاطين

* * *

(١) بيليس اسم يونانى الأصل معناه غصن

وكان الرجل الجالس إلى المرأة فى المائدة الثالثة ممسكا بيدها يلاعبها ويشدها خفية تحت غطاء المائدة وقد اشتبكت أقدامهما والتفت ساقاها كأنهما لا يصبران على الانفصال فترة العشاء الوجيزة . فلما قرأ الرقعة الموضوعة أمام عينيه ويده لا تزال فى مكانها ، أفلت يد صاحبته من يده بسرعة كأنما يفلت من يده قطعة من الحديد محماة على نار مشتعلة لذّاعة . وكانت الكلمات التى احتوتها الرقعة هى : « حذار إنك مراقب ! » فسحب الرجل ساقه وقدمه من مكانهما الدافئ ، ودفع إلى جليسته بالرقعة وهو يرسل ضحكة عصبية مضطربة ... فتأملتها قليلاً ثم قالت فى هدوء تام : أهذا أفلتَّ يدى وسحبت رجلك أيها الغلام الجبان ؟ والله إنك أبله ! وماذا علينا لو كنا مراقبين ؟ فضحك الرجل ضحكة أخرى أشد عصبية واضطراباً من الأولى وأجاب متشجعاً : لاشىء حقاً ! ففى صحة الحب نشرب ، ورفع الكأس فاشتفها ؛ وفعلت المرأة مثله فاجترعت كأسها وعادا إلى اشتباكهما السفلى

* * *

على المائدة الرابعة جلس رجل وسيدة من أهل الشمال ، وكان الرجل عابساً مقطباً كأن به مللاً أو سآمة . فلما قرأ الرقعة استضحك وقال لصاحبته التى تؤاكله : ليت شعرى من منا المقصود بالذات بهذا التحذير يا ماتيلدا العزيزة ؟ يلوح لى أن شرلوك هولمز فعل ذلك لكى يفهمنا أن لندن فى عاداتها وآدابها غير منشستر نقيضاً نقيضاً !

فأجابت المرأة : إنها لفكرة جميلة من مستر هولمز ليخيل إلينا أننا فى فصل من رواية شرطية :

فضحك الرجل وقال لها : وإننا كما تقولين ، فان ذلك الوغد برلسكو لقادر أن يبيعنا الأسلحة ، ثم يغرى بنا سكوتلانديارد [1] ، ليصادرها فنعاود الشراء منه ، ونحن لا نعلم أنه المصدر المجهول المتصل برجال الخفية اتصالا وثيقاً

فقالت ماتيلدا : ومتى كان شراء الأسلحة بالجملة محظوراً فى هذه البلاد ؟ أهى تقود مزيفة أم بضائع مهربة ؟ فقال : التجارة حرة فى بلادنا ، ما فى ذلك شك ، ولكن أسلحتنا لا تحمل علامة المصنع الذى يخرجها وقد عثر المحققون عليها فى كل حادثة من حوادث القتل التى وقعت فى برمنجهام وليفربول ومنشستر لثلاثة أعوام منصرمة . فما قولك فى هذا الدليل علينا بأننا نشارك الجناة بالمساعدة والاتفاق ؟

أجابت : إنه ليس دليلاً ، ولكن قرينة حال ، حتى ولا قرينة ، بل شبهة ، والشبهة قد تعلل بالمصادفة أحياناً . لسنا مسئولين عن كل سلاح نارى لا يحمل علامة المصنع . لو أن كل قتيل ممن ذكرت كان يحمل على جبينه أو معصمه علامة المثلث المزدوج وضبطت أداة الدمغة فى حيازتك أو حيازتى ، إذن لحق القول علينا ، ولكن السلاح وحده لا يكفى ، ولا يثبت المشاركة

— قد تكونين على حق ، ولكنك بلا ريب جريئة ، أنصبر على أنفسنا حتى تضبط لدينا الدمغة والأسلحة ، ولا نتعظ بهذا التحذير الذى صادف وقته ...

— ومن يدرينا أنه ليس استدراجاً واستطلاعاً من أحد خصومنا يريد أن يتثبت من شىء وينظر أن يبدو علينا ما يؤيد ظنونه ليبطش بنا ، فما علينا إلا أن نظهر الثبات والتؤدة وعدم الاكتراث بتلك الرقعة الفاترة

— كيف يكون الثبات فى لندن ، وفى مطعم كلاريدج ؟

— كالثبات والبرود فى منشستر وفى مطعم ليونز حذوك النعل بالنعل . إبدأ بتمزيق الورقة شذر مذر أو أشعل بها غليونك ثم اشرب كأسك واضحك بقهقهة عالية

فتشجع الرجل وأجاب : الحق بيدك دائماً ، ففى صحة المثلث المزدوج والسلاح الغُفل من ماركة المصنع نشرب ، ورفع الكأس فاشتفها ، وفعلت المرأة مثله فاجترعت كأسها

* * *

وعلى المائدة الخامسة جلس رجل وامرأة . فلما قرأ الرقعة راح يقول لها وهى إزاءه :

— أدب رائع من هذا الرقيب المجهول ، ولكنك تعلمين أنه كلما بادر زوجك إلى إدراك سرنا استطعت أن تتخلصى منه وتروحى طليقة

فقالت : وما بالك لا تخشى فضيحة المحكمة وشهود الاثبات ؟ ألأنك رجل تضمن إعجاب الرجال بك وتنسى ما يتنابنى من التشنيع وهتك أستار حياتى الخاصة

أجاب : حياتك الخاصة ؟ بل حياتنا . أقرأت فى صحيفة قضايا الطلاق اسم امرأة غير مقترن الى اسم شريكها . وماذا علينا إذا لم يتمكن زوجك من

(١) إدارة الأمن العام والبحوث الجنائية ووكر التجسس الانجليزى

مفاجأتنا متلبسين فى بيت الزوجية المحترم ، وهذا مالن نقع فيه أبداً ، فالخير كل الخير فى الفنادق والسيارات !

— وأهلى وعشيرتى وأصدقاء أسرتى ؟

— أهلك وعشيرتك وأهلى وعشيرتى ؟ كلهم يفعلون ما نفعل ويستترون ! قد يكون فى مسلكنا بعض الاستهتار ، ولكن الناس لا يحقدون على العشاق لأنهم يستوون فى الهوى ، ولأن الدنيا تكره الوقار

— الحق بيدك . فهذه مسز تريفلان على جلالة قدرها وضخامة اسم زوجها وشهرة أبيها ، لم تخف غرامها بسائس خيلها بعد المصارع جيمى واللاكم دوجار . ولادى كويفر التى كانت معروفة بالتقوى وغشيان الكنيسة فى كل أحد من آحاد السنة ، فرطت فى عرضها لذلك الشاعر المفلوك كويكر ، وعرضت شرف أجدادها وأسلاف زوجها لسخرية الشهود والمحامين والقضاة والجمهور الهازئ ، وهى لا تؤمل أن تتزوج منه ، ولا تطمع فى حمل اسمه الحقير ، بعد أن حملت اسم زوجها النبيل عشرين سنة كاملة

أجاب : الآن تتكلمين عن عقل وتصدرين عن منطق . ألم تقولى فى أول حبنا : من راقب الناس مات غمًّا ، ونصحت إلى أن نفوز باللذات . أنصبر حتى نكتهل خشية العار المزعوم ، وما رأينا أحداً يخشاه سوانا ؟ العالم كما كان ... اقتناص المال واللذة

فقالت : ولكن بربك قل لى : من يكون ذلك المخذر اللبق ؟

أجاب : لعله البصاص الذى دفعه زوجك ، ودفع له — ليراقبنا — أجره الرفيع ، وقد خانه !

فقالت : ولم يخونه وهو مأجور منه ومدسوس علينا ؟

أجاب : لعله أشفق علينا أو استثقل ظل زوجك . إن مجرد عاطفة حنان نحونا ، أو اكتشاف حقيقة زوجك ، وأنه أكبر نطع فى الإمبراطورية ، كاف لتحويل دفة الجاسوس من العداء الخفى إلى المحبة الظاهرة . من يدرى ؟ لعل الجاسوس هو نفسه عاشق امرأة متزوجة وهو يؤاكلها الآن ويشرب معها كما نشرب

— وهل تراه ينفق مال زوجى فى خديعته فيحظى بحب امرأة ويحذرنا فى وقت واحد ؟

— نعم ... نعم يا عزيزتى ، فيضرب طيرين بل ثلاثة أطيار بحجر ، فماذا علينا لو كنا مراقبين ؟

فتشجعت صاحبته وقالت : لا شىء حقًّا ، ففى صحة الجاسوس الرحيم نشرب . ورفعت الكأس فاشتفتها ، وفعل الرجل مثلها فاجترع كأسه

* * *

ولما قرأ الرجل الجالس إلى المائدة السادسة قال لصاحبته مغضباً :

— أرأيت ما كان أغنانا عن الدخول فى مطاعم الطبقة العالية ؟ وما لنا والجلوس فى هذه المطاعم الفخمة ؟ لقد رأك وحق السماء صاحب المطعم وأنت تلتهمين الفاصولية بالسكين ، وتلتقطين الحب المنتثر فوق غطاء المائدة فترمينه فى فمك كالطير ، ثم تلعقين أصابعك وتكادين تلعقين الوعاء كأنك موكولة بتنظيفه وتنقيته من بقايا الإدام ... ! وتشربين الأقداح حتى الثمالة ، فتعود الأطباق والكؤوس

فارغة ، فأرسل إلينا بهذا التحذير الغريب . ألا ترمين بالسكين جانباً ، وتأخذين الفاصولية بالشوكة وتغنينا عن هذه الفضيحة الصارخة ؟

فقالت : كأنك أنت وحدك الحديث النعمة ، لم تصبك الثروة إلا من أرباح الحرب ، فتخشى انتقاد أصحاب المطاعم وهم لا يبلغون شأو الخدم فى قصرنا . ومَن من طبقتنا أتقن الأكل بالشوكة والسكين كما أتقناه ؟ ألم نأخذ دروساً خصوصية على يد بريدج ذلك الجرسون الماهر فى مطعم والدورف ؟ لقد تكسرت أناملى حتى تمكنت من تلك الطريقة المؤلمة التى تحتم الضغط بالسبابة ورفع البنصر والتواء الخنصر وتصويب أسنان الشوكة إلى الشواء وحزه بالسكين بمنتهى الأناقة ، ولكن لماذا يذهب ذهنك إلى نقصى فى أدب المائدة ، ولا يذهب ذهنك إلى تزوير دفاترك ، لتجعل الدخل أقل مما هو ، حتى توفر مبلغاً ضخماً من ضرائب الايراد ، فتبعث إدارة المكوس وراءك من يقبض عليك بتهمة خيانة الخزانة العامة ؟ ليس أكل الفاصولية بالسكين جريمة ، ولكن سرقة مال الدولة بعد استلاب مال التموين هو الجريمة الكبرى والطامة العظمى .

فامتقع لون الرجل ووقعت الشوكة من يده . وقال : يالك من منذرة بالسوء ! ألا تخشين أن يكون الرقيب متسمعاً ؟ إن دفاترى دقيقة ، وقرينة الصدق والحقيقة . ومن لم يقل لك ذلك فقد خدعك ، حتى ولو كان أخاك ذلك الحوذى اللئيم الذى رفعته إلى رياسة المحاسبة فى متاجري .

— قد يكون أخى حوذياً كما تقول ، ولكنه لا يشى بك ؛ وإن وشى بك فلأنك بلا شك تستغل مواهبه وتظلمه ولا تقدره قدره

— أنا ؟ أستغل مواهب ذلك الفدم الذى لا يعرف الفرق بين الصفر وشراع السفينة ! سأطرده غداً فى أولى ساعات العمل . سأرسل به إلى حيث ينتفع بمواهبه ، إلى اصطبلات هوايت شابل ، أو مرابط الخيل فى دربي شاير . سيجنى أخوك يا حلوة الشمائل ثمار أعماله وأقواله ... بئس الصهر هو ، وتعساً للنسب الذى يجر وراءه الفضيحة والبلاء والنميمة والوشاية يتلوها الوعيد والغدر !

— كل هذا يا چاك لأننى أكلت الفاصولية بالسكين ؟ أم لأنك تحمل هم الحساب العسير بعد العشاء . والله ، لقد كرهتنى فى الغنى المفاجىء ! أنسيتَ إذ كنت عاملاً ، وأنا موظفة صغيرة ، نُنقد أجرة الأسبوع مساء السبت لنستريح يوم الأحد ونشارك أبناء طائفتنا الضراء والسراء ونوامى أهلنا ؟

— لا جرم أننا لقينا آنفاً من آلام الفقر أكثر مما أود أن تذكرينى به . وأما مسرات الفقراء وآمالهم ودواعى عزائمهم وسلوتهم واستراحتهم من الجهد والنصب ، فانها ما لا يمكن أن يقاس بما نحن فيه من النعمة .

— إذن وجب عليك ألا تتخذ من سعادتك الحاضرة وسيلة لإلحاق الأذى بأقرب الناس إلىّ . وإلا ...

— وإلا .. ماذا ؟ أتمى كلامك . فاني لا أتحمل تهديدك .

— وإلا فإننى أكون المبلغة عن دفاترك وغيرها .

— أنتِ ياصلعاء ؟ أتحسبين چاك مكدوجال يبيت فى أحضان حية مثلك وهو أعزل ؟ لقد أعددت لك أدلة مادية تزج بك فى أعماق السجون . فأتغدى بك قبل أن تتعشى بى . فذعرت المرأة ولكنها لجأت إلى الحيلة . فضحكت ضحكا عالياً . وقالت : لعلنا نندم على مادار بيننا ؛ وقد نكون واهمين فى مخاوفنا مبالغين فى تقديرها ولم يصبنا سوى مرارة الأنفس من رفع القناع عن عواطفنا التى كانت مبرقعة وقابعة فى حنايا أضلاعنا . . وماذا علينا لو كنا مراقبين ؟ فتشجع صاحبها وأجاب : لا شىء حقاً ، ففى صحة الفقر القديم والغنى الطارىء ، ورفع الكأس فاشتفها ، وفعلت المرأة مثله فاجترعت كأسها .

* * *

هذا ، وكان الرجل الغامض صاحب هذا التدبير ، القابع وراء العمود الأبيض يرقب رقاعه وقارئيها فى لهفة ودقة بصر ، ولكنه لم يسمع شيئاً مما دار على الموائد ، لأن الذين قرأوها لم يلبثوا أن وضعوها جانباً فوق الموائد ، وعادوا إلى ما كانوا فيه من الأكل والسمر ، إلا جورج أديكت دراج الجالس إلى المائدة الأولى وهو مدمن الأفيون فقد بدا عليه من دلائل الاضطراب والجزع ما بدا . ثم راح يلتفت يمنة ويسرة وهو فى أشد حالات الخوف وشفتاه ترتجفان ؛ والتقط الرقعة مرة أخرى فقرأها ثم وضعها فى خوف ووجل ، ورفع يده إلى جبينه ونظر إلى الجلوس ثم لم يلبث بغتة أن استوى واقفاً كأنما طُعن فى صدره ، فجاءه خادم المطعم مسرعاً فقال له : علىّ بقائمة الحساب ! أسرع ! وقدحاً من الكونياك . ولم يتم كلامه حتى نهض من مجلسه ثانية . وإذ ذاك التقت نظراته بنظرات الرجل الغامض صاحب الرقاع ، فعاد إلى الجلوس كأنما قد خانته قدماه وخذلته قواه ومضى يصرخ على الخادم : أسرع ! الحساب وكأساً من الكونياك .. كأساً كبيرة من الكونياك ، ثم الحساب ! هلم ! أسرع . فلما جاء الخادم إليه بالحساب والشراب أطلع من جيبه رزمة كثيفة من الأوراق المالية التى جلبها من الهند ، ورمى للرجل بالحساب والبقشيش متعجلاً ، ودفع ببقية أوراقه المالية إلى جيبه مسرعاً وهو يطبقها تطبيقاً ويلويها لياً عنيفاً ؛ واشتف الكأس دفعة واحدة وخرج من المطعم متعثراً يحمل رجليه حملاً . وكان جورج أديكت دراج قد هجر الخمرة من زمن طويل ، منذ تعود الأفيون ، لأنه أنف اللذة المتولدة من الخمر التى عهدها نشوة تدريجية لا تزال فى سرعة حتى تبلغ القمة ، ثم تأخذ تنحدر وتهبط فكأنما هى لهيب مضطرب يشوش الذهن ويشل الإرادة ويسلب ضابطة النفس ، وتحدث اختلالاً فى ملكة التمييز والحكم . ولكنه شرب الكونياك مرغماً مضطراً ليعينه على مقاومة الخوف والاضطراب

ورآه الرجل الغامض فدفع حسابه للخادم ، وتناول قبعته ومضى من المطعم وأدرك جورج أديكت دراج وهو فى أشد اضطرابه أن الرجل الغامض يطارده فعدا وهو متخاذل القوى إلى سيارة مأجورة ، ولكنه ما كاد يستوى فى مجلسه منها حتى أبصر من خلال زجاجها وجه الرجل الآخر ينظر إليه ، فصرخ صرخة رعب شديدة وقفز إلى إفريز الطريق وانطلق يعدو صوب إحدى حدائق النزهة ، ومشى الآخر فى أثره يتبعه فعدا يريد محطة الترام ، ولكنه ما كاد يعطف فى الشارع حتى

رأى ذلك الرجل واقفاً أمام حانوت بدال ، فانسل مسرعاً حتى بلغ المحطة ، وابتاع تذكرة ووقف ينتظر القطار ، وقد ظن أنه أفلت من ذلك الرجل الذى كان يتبعه ، ولكنه لم يكد يلتفت وراءه حتى أبصر به واقفاً فوق إفريز الشارع يبتسم ابتسامة شنيعة وهو يفتل شاربيه المشوشين ، فخالس الرجل حتى إذا ظن أنه لا يراه انفلت من فتحة هناك فى جانب الطريق إلى المحطة ، وكان القطار متدانياً ، فكبر أمله وتشجع قلبه ، ولكنه ما كاد ينظر إلى اللوحة المعلقة فوق الجدار وهى : — القطار الأول لا يقف بهذه المحطة — حتى تولاه اليأس مرة أخرى ومات الرجاء ، والتفت فأبصر الرجل المخيف وراءه يبتسم ابتسامته المرعبة ، فاشتد قنوطه ، وحاول أن يندفع صوبه ويصيح به : « أسألك بأى حق تطاردنى ؟ » ولكنه عاد فخشى أن يتعجل الحوادث وصبر على جمر حتى أقبل القطار التالى الذى يقف بالمحطة فوثب إليه وهو يكاد يسقط . فلما استقر به مكانه فى المركبة ظن أن الرجل قد ابتعد عنه وأنه قد أصبح فى نجوة من تعقبه . ولكنه إذ وقف القطار ونزل منه لمح الرجل ينزل من المركبة الأخرى فعاد فوثب إلى القطار مرة أخرى وهو فى أشد حالات الرعب ، وجعل فى كل محطة يحاول النزول ، ولكن خوفه من أن يكون الرجل الذى يطارده فى القطار جعل يمسكه عن النزول ، ولكنه إذ بلغ محطة بعيدة عن المحطة التى كان ينبغى أن ينزل عندها بحكم التذكرة التى ابتاعها ، لم يجد مطارده فى غمار الركب والجمهور المزدحم عند الأفريز ، فمشى إلى باب المحطة مسرعاً حتى وصله قبل المسافرين ، فاطمأن قليلاً واعتزم أن يتخذ القطار المكان الذى يقصد إليه فى ريتشموند ، فابتاع تذكرة من الشباك وانطلق مسرعاً يريد الركوب ، ولكنه ما كاد يخطو خطوات قلائل حتى أبصر الرجل الغامض قد ابتاع تذكرتين إلى ريتشموند ، فاشتد به الجزع ، واستولى عليه القنوط ، فدلف نحو الرجل وقال بصوت مرتجف ووجه مرتعد : « بحق السماء تنبئنى يا سيدى ماذا تريد منى ؟ أتريد مالاً ؟ » فنظر إليه الرجل الغامض بعين ماكرة ونظرة خبيثة وقال : « لم يضرب إلى الآن المال الذي يستطيع أن يُغرى مثلى بترك واجبه »

فاه بهذه الكلمات بكبر وخيلاء ونظر إلى الرجل نظرة سطوة وعزة ، وكأنما أراد أن يسمع الجمهور الذي حوله تصفيقاً له على ما قال ، وإذ ذاك عاد المسكين يسأله : « إذن فما الذى تريد منى ؟ ومهما يكن فافعل ما تريد منى فوراً ، بلا تردد ! » وإذ ذاك رفع يده تضرعاً وعاد يقول : « افعل بى ما شئت ياسيدي حالاً ولا تتمهل ! انقذنى من ألمى ومخاوفى »

فابتسم الرجل الغامض وأجاب : لم يحن الوقت بعد ! الناس حولنا كثيرون ، والطريق غاصة بالسابلة . إنك تستطيع أن تقاوم بضع ساعات

وهنا كان قد وصل القطار ، واندفع الناس صوب الإفريز يطلبون ركوبا ، فالتفت چورج أديكت دراج وراءه فرأى شرطياً يمشى تمشت ، فهرع إليه وهو يصرخ : أنقذنى أيها الشرطى ، إن إنساناً يطاردنى . فنظر إليه الشرطى ملياً ببرود نادر المثال

ثم قال : خلِّ عنك أيها الرجل وسر هادئاً إلى بيتك وخذ فنجاناً من الشاى ثم ادخل سريرك ، فإن الشاى والنوم كفيلان بأن يذهبا عنك سكرتك

فصاح جورج باكياً : كلا ! لست فى صرعة شراب ، إنني مطارد ! إن رجلاً يطاردنى . قال الشرطى : هل تريدنى أن أقبض على أحد ؟ قال جورج مرتعشاً : نعم أريد أن أسلمه إليك . فأجاب الشرطى : إذن فأشر إليه ودلنى على مكانه من غمار هذه الجماهير ، فنظر جورج أديكت دراج حوله نظرة ذهول ورعب لا يُقدران ، والناس متدفعون من المحطة ولم يكن الرجل اللعين فى غمارهم . فقال الشرطى ضاحكا : ألم أقل لك إن الشراب لا يزال آخذاً بلبك ، خير لك أن تستشير طبيباً يداويك من علة الأعصاب ! وما كاد الشرطى ينتهى من كلماته حتى أشاح بوجهه وولى المسكين ظهره وانطلق فى الشارع معرضاً

والتفت الهارب حوله فأبصر عدة زوارق عند ضفة النهر واقفة وأربابها يرتقبون عملاً فجرى جورج إلى أقرب رجل منه ، وألقى فى يده عشرة شلنات وصاح به : أسرع بى إلى أى مكان ، وسأخبرك بالجهة التى أقصد إليها بعد أن تتوسط بنا الماء ... هلم ... ادفع الزورق ...

ولم يكن هناك أثر للرجل المخيف ولكن ما كاد يجلس المسكين فى القارب وقد تملكه التعب فاستلقى على ظهره ، حتى أبصر عدوه الذى يطارده قد انحدر يطلب الركوب فى نفس القارب وقد وقف يكلم صاحب الزورق وسمع هذا يقول للرجل المخيف :

— معذرة أيها السيد فقد تعهدت لهذا السيد أن أروح عنه بنزهة صغيرة فى النهر مابه من تعب ولهذا لا أستطيع أن أسير بك ... فألقى الرجل الغامض فى يد رب السفينة ورقة مالية وقال : « لاضير ولا سوء من ركوبى ، فلن يحرم السيد نعمة النزهة ، ولعلك مستطيع أن تضاعف السرعة بنا فأجاب صاحب الزورق : إذا كان ذلك ، فهلم اركب ياسيدى . وانطلق الزورق بالرجلين ، فذعر جورج وحاول الكلام فلم يستطع ، ولكنه إذ استطاع أن يملك صوته جعل يقول : كيف اجترأت أن تركب معي فى زورق الذى استأجرته ؟ وإذ ذاك جمدت الكلمات على شفتيه فلم يتم ، وكان الرجل جالساً بجانبه لا ينظر إليه كأنه غير شاعر بوجوده . فلما تكلم التفت إليه مبتسماً وقال : « لم يحن الوقت بعد للكلام » ووصل الزورق إذ ذاك إلى الضفة الأخرى فعدا جورج يطلب النجاة . هناك لاح بيت صغير فوق رابية ذات شجر ، وكان هذا هو المكان الذى يطلبه والدار الآمنة التى يعتصم بها لو أنه استطاع وصولا وهو يجرى ويلهث ويشهق ويزأر ويبكي ، لأن بينه وبين تلك الدار ثلاثة أميال . وهنا التفت وراءه فألفى الرجل قد حسر عن رأسه ووضع قبعته تحت إبطه ، وكان شعره يتطاير مع الهواء وشارباه مرتفعين فى الريح وقد انعدمت المسافة الآن بينهما ، والرجل الغامض الضخم قد تصبب عرقاً وهو يصرخ صرخات مرعبة ، وأخذ جورج يسائل نفسه : أى أمر وأى جرم يخشاه ؟ وأية جناية ارتكبها ويشفق من الاعتقال من أجلها ؟

وكان الرجل الضخم على مسافة خمسين ياردة من فريسته ، ولكنه لم يستطع أن يقرب شيئاً من هذه المسافة ، وكأنما كانت الهمهمة المخيفة التي كانت تصدر منه وهو في جهاده العنيف يطارد الهارب تدفع هذا المسكين إلى الأمام ؛ وأخيراً وصل جورج اديكت دراج إلى الدار وكان بابها مفتوحا فقفز إليه وعدا يصرخ طالباً الغياث ، ووصل الرجل الغامض بعده بفترة ، وأبصر من خلال باب الحديقة داراً مضيئة فصرخ صرخة ألمية ، وأدار وجهه وقد علته سحابة من الحزن ، ثم انطلق على آخر سرعة كأنما قد شطحت وراءه الشياطين تتبع أثره

قال جورج اديكت دراج للطبيب سكوايز فارس في حجرة الاستقبال في تلك الدار وقد هدأت ثائرته قليلا : هأنذا قد عدت إليك ، فدعني في كنفك بحق السموات . دعني في حراستك ، لقد عادت إليّ النوبة ، إن رجلاً يطاردني . إن قوة مخيفة تجري في أثري ...

فجعل الطبيب يتفحصه ثم أنشأ يقول ملاطفاً : أؤكد لك أنك قد شفيت الآن من أوهامك وأخيلتك وتأثير العقاقير التي كنت ملحاً على تعاطيها لقد كان رعبك غريباً ، رعب المجهول والخوف من الغامض والمبهم ، رعب الوهم والرعدة التي تسري في البدن من الخيال الذي تخلقه الأعصاب الضعيفة

فتشبث جورج بالطبيب خائفاً يرتعد وهو يقول: بالله عليك لا تطردني من مستشفاك ، دعني أظل في حراستك . فقال الطبيب مخففاً من آلامه : هوّن عليك ! سأذهب معك فإن هذا الحادث غريب طلى وسنعود غداً إلى مطعم كلاريدج ، ولعلي مستطيع أن أثبت لك أن ما رأيت اليوم كان حقيقة لا وهماً وواقعاً لا خيالاً

* * *

في جلسة العشاء بذلك المطعم مساء اليوم التالي كان الرجل الضخم الغامض جالساً في مكانه الذي كان يشغله ليلة الأمس ، وكان يرقب الموائد التي أمامه ، والرقاع نفسها ، رقاع العشية الماضية أمام مائدته ، وكان يلوح عليه الغضب ، وكان محنقاً لأن الرجل الجالس على المائدة السادسة كان موليه ظهره ، وكان الرجل جالساً وحده ، وفي المائدة القريبة منه جلس رجلان قويان شديدا الأسر ، وقد كان العاشقان اللذان كانا بالأمس في شغل شاغل بالتغزل والنجوى والسمر عن كل شيء حولهما ، في مكانهما الذي كانا يجلسان فيه بالأمس فلم يحفلا بالحادثة والخادم يضع أمامهما الرقعة . ولكن بدا على الرجل الجالس إلى المائدة السادسة أمارات الاضطراب ، فتحفز الرجل الضخم الغامض صاحب الرقاع في مجلسه ، وتطاول ومد عنقه ليدري أثر رقعته في معارف وجه الرجل ، فرأى الرقعة تسقط من يده وإذ ذاك نهض الرجلان الجالسان إلى المائدة القريبة ومشيا يريدان الخروج ، ونهض الرجل الجالس إلى المائدة السادسة وهو يتعثر في أذياله مضطرباً راجفاً ، وهنا بدت على الرجل الغامض آثار السرور وابتسم ابتسامة خبيثة وأصدر صوتاً مخيفاً لعينا أشبه بهرير الكلاب ومشى في إثر الطريدة . وإذ ذاك انقض عليه الرجلان القويان المفتولا السواعد وحملاه إلى

سيارة واقفة بباب المطعم وهو يصرخ ويرغى ويزبد وألقيا به مكتوفاً وانطلقت به السيارة عادية ؛ وعندئذ عاد الرجل الذى كان يتصنع الاضطراب والخوف إلى مائدته فاسترسل فى عشائه ، وإذ ذاك انضم إليه جورج إديكت ورفيق له

قال الرجل وكان هو سكوار فارس طبيب الأمس لجورج اديكت : أرأيت يا صاحبى أن الرجل الذى بطاردك حقيقة لا شبحاً ولا خيالا ولا وهماً .. هذه رقعته التى تعود أن يكتبها ! حذار ! إنك مراقب : هذه هى الحيلة التى جعل بها يخرج الفيران من جحورها ، فعل الهرة بالفأرة . ذلك الرجل كان مريضاً وكنت أعالجه وقد مكث أشهراً لدىّ فى المستشفى . وتفصيل قصته أنه وضع قصة تمثيلية عن التجسس فى روسيا القيصرية ، فنجحت وربح من ورائها مالاً طائلا . وقد قام بتمثيل الدور الأول فيها وهو دور الجاسوس فجنى عليه النجاح والكسب ، لأنه لم يستطع منذ ذلك العهد أن يكف عن تمثيل دور الجاسوس فى الحياة ، وذلك بتأثير أخيلته وأعصابه . وهكذا مضى يخيل إليه أنه لا يزال جاسوساً ، وأنه لا يزال موكلا باخراج الفيران من مكامنها . فلما عالجته استأصلت العلة من أعصابه ، ولكن العلة مالبثت أن انتكست عليه فعاوده المرض ، ألا فاحمد الله أن هيأ لك عشية أمس أن تسبقه ببضع ياردات فقد شفيت من مرضك الذى دهاك من إدمان المخدرات والعقاقير السامة .

يا غلام ! علينا بقائمة الحساب !

محمد لطفى جمعة

الفصول والغايات

للفيلسوف الشاعر الكاتب

أبى العلاء المعرى

طرفة من روائع الأدب العربى فى طريقته ، وفى أسلوبه ، وفى معانيه . وهو الذى قال فيه ناقدو أبى العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة فى القاهرة وصدر منذ أسبوع

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن زناتى

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد

ويطلب بالجملة من إدارة مجلة الرسالة

ويباع فى جميع المكاتب الشهيرة

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً

من لويس جولدنج

ايولاندا - و - فرنشسكا

أو الحسناء والخيال

بقلم الأستاذ زكي خشبه

كانتا توأمتين ، وكانت إحداهما تشبه الأخرى في الخلق والخُلق ، ويكاد يكون لهما قلب واحد ، ولب واحد ، وأسلوب في فهم الحياة يجرى على نمط أهل الجنوب من هذه المملكة الجميلة ... إيطاليا

أما أبوهما ، الكونت دى سانت أجاتا ، فرجل محافظ نشأ في أسرة من أعرق الأسر التي تترعرع منذ أجيال مع ورود الاپنين ، والتي يعطر تاريخها مشارف الجبال الضاربة حول نابلى

وماتت أمهما وهما ما تزالان في المهد ، قبل أن يتما شهرهما السادس ، فعنى بهما أبوهما عناية كان يوزعها دائماً بينهما وبين كرومه التي ورثها عن أسلافه ، والتي كان يتمنى لو تصبح جنة من جنات بوردو[1] تجرى من تحتها أنهار من نبيذها المصفى

وانصرف الكونت إلى عمله ، وغمره ما لقى من نجاح ، فاعتزل الدنيا العريضة الواسعة ، واتخذ من كرومه منفى اختياريًا كان يشركه فيه ابنتاه الجميلتان . وهو لهذا كان ينقبض عن الناس ويعزف عن مجتمعاتهم ، ولا يبالى أن يكون شذوذاً في جبلة البحر الأبيض المتوسط ومزاجه الذى من خواصه المرح والانطلاق

ولم يكن دى سانت أجاتا يقارف من الخمر ما يخرجه عن وقاره أو ينسيه حلمه واحتشامه بل كان معتدلاً حتى في مأكله ... وكان وجدانه مشبوباً دائماً ، وكان لذلك يعيش في عالم فسيح من أحلامه الشاسعة ، تزيد في تهاويله ابنتاه الحبيبتان — إيولاندا ، وفرنشسكا — اللتان كانتا تخشيانه أكثر مما كانتا تحبانه

ولم تكن إحدى الفتاتين تعرف أنها شيء ، وأن أختها شيء آخر ، بل كانتا تحسان إحساساً عميقاً أنهما شيء واحد غير منفصل . فهما تأكلان طعاماً واحداً وتشربان شراباً واحداً ، وتتغنيان أغانى واحدة ... ولا يكاد يصيب إحداهما صداع أو نحوه إلا يصيب الأخرى مثله ، بل يبالغ العارفون فيذكرون أن الشوكة لا تكاد تصيب يد إحداهما ، وهى في أول المزرعة حتى تتأوه الأخرى من ألم في يدها وهى في آخر المزرعة

ومضت عشرون سنة فلم يحدث أن افترق الأختان مرة واحدة ، بل كانت الشمس تشرق عليهما معاً ، ثم تغرب عنهما كما أشرقت ، وكأنهما نغمة خالدة متزنة في سلّم الوجود الموسيقى

ثم أصيبت فرنشسكا بمرض في زورها أورثها آلاماً مبرحة ، فرأى أبوها أن يرسلها إلى نابلى ، عند واحد من أطبائها الجراحين ليُجرىَ لها العملية اللازمة ، وكان طبيعياً أن تصحبها إيولاندا لتسهر

(١) مدينة فرنسية تشتهر بأجود أنواع العنب وأفخر الأنبذة

عليها ، وتُعنى بها ... فما كان أعجب أن تصرخ من ألم شديد فى زورها هى الأخرى حينما كان الطبيب يُعمل مبضعه فى زور أختها ... بل كان أعجب من ذلك أن يسيل الدم من نفس المكان الذى كان ينبجس منه فى جرح فرنشسكا

تشابه فى الخلق يوشك أن يكون أسطورة ! !

بل هو أسطورة بالفعل ، أسطورة غريبة حقيقية !! وموضع الطرافة فى ذلك أنهما هما أيضاً كانتا لاتصدقان أنهما شخصان لكل منهما وَحدته واستقلاله ، بل كان شىء من هذا لايدور فى خلدهما مطلقاً . فليست مبالغة إذن ما رواه العارفون من أنهما حينما كانتا تتناديان لم تكونا تعرفان من منهما فرنشسكا ، ومن عسى أن تكون إيولاندا ؟ ! وفى معظم الأحيان كانتا تتبادلان الاسمين بسبب ذلك !!

وحُمّ الفراق بين الأختين فجأة ... وذلك أن نبأ محزناً ورد من سورّنتو يقول : « إن أباهما سقط من عريش عال بينما كان يعالج واحداً من كرومه ، فكُسرت ساقه ، وأنه لا بد من وجود إيولاندا بجانبه ... » ولم ير الجراح مانعاً من الاذن لها بالسفر بعد أن طمأنها على صحة أختها ...

وكانت ليلة الوداع ليلة من ليالى الجحيم تأججت نيرانها وسط الجنة !! وكان عذابها مزيجاً عجيباً من اللذة المشوبة بالألم . المنضوحة بالدمع ، المُنْضَجة فى جمرات القلبين اليافعين المعذبين

وكانت الأشهر الأولى غراماً[1] على نفس إيولاندا ، فقد شفى أبوها ، ولكنه كان شفاء أشبه بالنزع ... ثم تأخرت عودة فرنشسكا عن أجلها المضروب أسابيع عدة حتى ثارت الشكوك فى نفس أختها عما كان يلفق لها من الأنباء عن نقهها المكذوب

ثم حدث الانقلاب الكلى فى حياة إيولاندا فقد لقيت فتى غريض الشباب ريان الإهاب فوق رُبى (أجيرولا) ، فدخلت من عينيه القويتين الساحرتين إلى دنيا باهرة زاهرة غير هذه الدنيا التى يعيش فيها الناس

لقد رنا إليها الشاب ورنت هي إليه ، فأحست فى رأسها وفى قلبها بدوار شديد كالذى يحس به راكب البحر ... ووقع كل منهما فى فؤاد صاحبه ، كأنه دنياه ، وكأنه جنة أحلامه التى ليس له سعادة فى غيرها

وكانت إيولاندا ثمرة ناضجة قد حان قطافها ، إذ سلخت من الحياة عشرين عاماً بتمامها ؛ وكانت ربيعاً كاملاً فى إبانه ، يتبرج بورده ورياحينه ، ويعبق بشذاه فيملأ الدنيا الباسمة عطراً ، ويوقع فى آفاقها المشرقة ألحانه

وكان الشاب فى ميعة صباه وعنفوان أيامه ... قد قارب الثلاثين ... وتسلح لمغامرات الحب بالقلب الفارغ والعضل المفتول والشعور المرهف ، والنفس التى برزت من الظلمات كالفراشة ، لتعرف على هالات النّوار

وشعرت إيولاندا بشىء ينفذ فى صدرها كالسهام المحمى ، وذكرت فى هذه الغمرة المفاجئة أختها ، وشهدتها فى حلم من أحلام اليقظة مسجاة فى سريرها بالمستشفى وانية شاحبة ، فخجلت من هذا الطائف الغرامي الذى غزا قلبها ، فأشاحت بوجهها عن الشاب ، وقد اشتعلت حمرة الحب فى خديها ، فتفتحا عن وردتين ناضرتين ... ثم ولت مدبرة من

(١) الغرام العذاب الشديد والشر الدائم

طريقه ، وحثت الخطا ، حتى إذا غابت عن ناظريه انطرحت فى غيضة من آس ... وأنشأت تبكى !

ولقيته بعد هذا مرة أو مرتين ، وعلقها الشاب بل جن بها ، وجعل يذرع الطريق الذى لقيها فيه لقاءه الأول عسى أن يسعده الحظ بلقياها ، وكان يترنح في ظلال الشاهبلوط ، ويستنشى الشقائق اليانعة التى تزخرف بها الطبيعة حاشية الطريق كأن قصة حبه قد سجلت فى أوراقها !

وعرف من أهل سانت أجاتا من هى حبيبته وأين يقع بيتها من كروم الكونت الواسعة ... وحثه الحب ، فلم يتورع عن أن يزور الكونت من غير ما معرفة ... ويبدو أنه كان من أهل كابرى فقد كان يحضر كل مساء إلى سورنتو على زورق من زوارق نابلى ، لينشق عبير الحب فى وادى أحلامه

* * *

لقد كان إنريكو دى سارولا يعيش وحده فى فيللا أپرونال ، هذه الفيللا المنيفة الشاهقة ، النائمة فى حَيْد من أحياد أنا كابرى ، مشرفة على خضرتين مائجتين من بحار الطبيعة ، هما خضرة البحر الموهة بالفضة ، وخضرة أشجار الزيتون الموشاة بأذناب الطواويس ... وكان يحيا هناك حياة الناسك المتعبد الذى اعتزل العالم لسر غامض دفين ، لم يعرف الناس منه إلا أن الشاب قد نزغ الشيطان بينه وبين أمه العجوز الحيزبون فترك لها الدنيا تتجرع ثمالتها الشقية وحدها في قصر أجداده فى سالرنو ، ثم سافر إلى باريس يطلب الحكمة فى معاهدها فلبث هناك ستة أعوام عاد بعدها ليقيم فى فيللا أپرونال ... ولم يغادر الفيللا طوال هذه السنين إلا مرة واحدة منذ أسبوعين ، حين سافر إلى سالرنو ليدفن أمه ، وليخلص بدفنها من شجو طويل هو السر الذى لم يقف عليه أحد ؛ وليعود بعد أن حثا عليها التراب حراً لا يرى بأساً فى أن ينشق عبير الحرية من جديد .

فبينما كان سائراً فى هذا الطريق المنضور بين سالرنو وسورنتو ، لقى فتاته الفينانة إيولاندا ، فجن بها ، وذهب إلى أبيها المحطم فعرفه عن نفسه ، وكأنما وافق شَنٌ طَبَقة ، كما يقولون ، فقد وجد فيه الكونت رجلاً تتفق طبائعه معه ، وتنسجم سجاياه وإياه . فلما خطب إليه إيولاندا على نفسه لم يرفض طلبه ، بل هش له وبش ، وإن يكن قد أسقط فى يده لما يعلمه من تعلق الأختين كل منهما بالأخرى ولما يدركه من استحالة فراقهما بهذا الزواج الوشيك

— إنى أبارك هذا الزواج يا بنى ، ولكن فرنشسكا ! فرنشسكا يا عزيزى إنريكو ما ذا يكون خطبها ؟ : إنها لا تسمح لأحد أن يفصلها من إيولاندا إلا بحرب !

— أنا لا أظن أن فرنشسكا تقف فى سبيل سعادة إيولاندا ، إذا كانت تحبها حقيقة ... إن هذا لا يجمل بها أيها السيد ... إنه لا يجمل بها بحال !

— أنا معك يا إنريكو ، لكنى أعرف من أمرهما مالا تعرف ، وأحسب أن أحسن ما يجعلهما تتفقان هو أن تتزوجا كلتاهما من رجل واحد

وتضاحك الكونت حتى بدت نواجذه ، ظناً منه أنه أرسل نكتة نابغة ! وتضاحك إنريكو ، أو قل ، إنه قد تصنع الضحك ثم قال :

— بل قل إن العلة هى إيولاندا نفسها ، ولكن ، كيف ؟ إنها تحبنى كما أحبها ، وقد صرحت لى بذلك !

ولم يكذب الفتى فى الذي باح به ، فقد كانت إيولاندا تحبه حقاً ، وكان حبها له هو العاطفة الوحيدة التى دخلت بينها وبين أختها فلم تشركها فيها ، وأحست هى أنها لا تود أن تشركها فرنشسكا فيها ، وكان حبها حباً صارخاً مضطرماً يتأجج فى قلبها ، وتبدو لهبه فى عينيها ... بيد أنه كان حباً لا يعدل حبها لأختها بعد، لأن حبها لأختها كان يتدفق مع الدم فى جميع كيانها طوال هذه السنين ومن قبل أن ترى الدنيا ... وقد ساءها أن يصرح إريكو بما بينهما لأبيها ، فتجهمت فجأة ، ثم انتهرته بقولها : « أبداً ، أبداً ، إنى لا أقبل أن أتزوجك ! كيف تريدنى أن أنفصل من فرنشسكا ؟ إذهب ! إذهب من هنا ! لماذا أتيت إلينا ؟ »

وقد بهت إريكو ؛ لكنه تناول يد الفتاة مع ذلك ، ثم راح يقبل العبرات الحرار التى انتثرت فوقها من العينين الحبيبتين ، وقال : « روبدك يا حبيبتى ! لا تثيرى إذن ! سننتظر حتى تعود فرنشسكا فهى وحدها التى ستضع كل شىء موضعه ... إنها ستعود بعد أسبوع أو أسبوعين ، وإن شئت فلا بأس من أن نذهب الآن فنزورها »

فقالت إيولاندا : « كلا ، كلا ! بل أذهب أنا وتبقى أنت مع أبى ، وسأظل هناك حتى يأذن الأطباء لفرنشسكا بالعودة ، فإذا عدنا ، فلا يجب أن تبقى هنا لحظة ... »

فقال إريكو وهو يبتسم : « فإذا قالت فرنشسكا إن أسعد أيامها هو ذلك اليوم الذى ترانا فيه زوجين سعيدين ، فهل تخضعين لحكمها ؟ أما أنا فأخاضع لهذا الحكم من الآن ، وأنا متأكد أيضاً أنها ستقضى بهذا ! »

وقالت إيولاندا إنها ستصدع بما تقضى فرنشسكا ثم قالت إنها ستذهب إلى نابلى بعد يومين ؛ لكنها لم تفعل ؛ فقد خرجت فرنشسكا من المستشفى ، وعادت أدراجها إلى سورّنتو بعد يوم واحد من ذلك الحديث ...

— إيولاندا ، إيولاندا ، لقد عدت أدراجى من أجلك ! من أجلك أنت ! إنى لم أطق أن أحس بك ، على هذا البعد الشاسع ، غير سعيدة يا أختاه !

— أوَقدْ عرفت يا فرنشسكا ؟ أوقد عرفت ؟

— إيولاندا ؟ ! كيف تسألين إن كنت قد عرفت ؟

— أيتها الشقية ؟! إنك ما أقبلت إلا لتزاحمينى !

— إيولاندا ؟! غفر الله لك ! وأقسم لك يا أختاه أننى ما قدمت إلا من أجلك ، وإنه لا مطمع لى فى شىء ... إننى أعرف أكثر مما يعرف الأطباء يا عزيزتى ... إننى أموت يا إيولاندا ... إننى أموت !

— أوه ! فرنشسكا ! فرنشسكا ! لا تقولى مثل هذا مرة أخرى ! إنك تزعجيننى ! إنك تقولين ما تقولين لأننى سمحت لنفسى بالسماع إلى هذا السَّالِفِ ! لن أصغى إليه بعد اليوم يا أختاه ... سأطرده غداً ، بل الليلة ... !

— لا . لا يا أختى العزيزة ، إياك أن تفعلى ! إنكما يجب أن تتزوجا ، ولكن بعد أن أموت أنا . قولى له ليغب عن هذا المنزل يوماً أو يومين ، أو أسبوعاً أو أسبوعين ... أو ... شهراً أو شهرين ، فلن أعيش أكثر من ذلك ... ثم ليحضر بعد هذا ولتتزوجا !

— إن كنت حقاً ستموتين فإنى ميتة لا محالة !

— إذن فلن أموت ما دمت حية يا إيولاندا !

وإذا تزوّجته ، فإنى سأتزوجه كذلك ! أفهمت ؟

— فرنشسكا ! إنك تحطمين فؤادى !

— ياحبيبتى ! إننى لست فرنشسكا فحسب ، بل أنا إيولاندا كذلك ؛ وإنك لست إيولاندا فقط ، بل أنت فرنشسكا أيضاً !

— أجل ، أجل يا حبيبتى ! إن كلاً منا فرنشسكا وإيولاندا ، ولذا فإنك ستغفرين لى إذا أنا تزوجت من إنريكو !

— وإذا تزوجت منه ، فإنى لن أموت !

وماتت فرنشسكا بعد سبعة أسابيع ، وبعد سبعة أشهر زفت إيولاندا إلى إنريكو دى سارولا

وسيء الكونت دى سانت أجاثا بموت الأولى وزواج الأخرى لأن كلا الحادثين كان شرّاً عليه...

— ٢ —

ولم يكد يتغير الحال فى قيللا أيونال ... فقد بقيت سجناً لا باب له كما كانت ، وكأنما فتح إنريكو فى أحد جدرانها ثغرة لتدخل منها إيولاند حتى إذا دخلت سدّ الثغرة بحجارة مسومة فعاد الجدار أقوى مما كان

ولم تشعر إيولاندا بالوحشة فى هذا القصر الرهيب فهى لم تعتد الحياة الجماعية من قبل ، وقد قضت حياتها كلها في رفقة شريك واحد أو شريكين إن يكن رجل مثل أبيها شريكاً

وكانت سلواها تلك الشعاف الشاهقة تتسلقها وتهبط فى مخارمها ، وهذا البحر المصطخب تملأ عينيها وأذنيها من أمباجه وجرجراته ، فالمنظر واحد هنا وفى سورنتو... ثم هي قد أحبت زوجها ومالت إلى ما كان يأخذ به نفسه من عمل ... وقصارى القول لقد سعدت إيولاندا سعادة لم تسعدها من قبل ... سعادة استمرت عامين كاملين كانا كحلم ناعم فى الفردوس ، إن كان أحد فى الفردوس ينام ، أو يغمض عينيه !

وفى خلال هذين العامين ، لم تزر إيولاندا أباها إلا مرة واحدة ، بعد أشهر من زفافها ... وكان أبوها قد عوفى مما حاق بساقه ، وفرغ لكرومه التى كان يود لو تصير جنة من جنات بوردو

ثم تغير الحال فجأة ... فقد لاحظ إنريكو أن زوجته تلحف فى زيارة أبيها حتى لا يكون بين الزيارة والأخرى غير أسبوعين ؛ ومع بعد الطريق الذى يقطعه الزورق فى ساعات ذهاباً وجيئة فإنها كانت تعود في نفس اليوم الذى كانت تمضى فيه ، أى أنها لم تكن تمكث عند أبيها إلا ساعة أو ساعتين

وقد يُظن في سبب ذلك ظنون شتى ، إلا أن الوالد الذى تقدمت به السن كان يستأهل من وحيدته كل تلك الزيارات

ولم يكن إنريكو يُعنى بأن يصحب زوجته إلى سيف البحر ، أو أن يذهب إليه للقائها حين عودتها ، لأنه كان يمقت هذه القرية أنا كابرى ، بقدر ما كان يمقت القرية المقابلة كابرى ، ولم يكن يود أن يرى أحد من أهلهما . ثم هو كان إلى ذلك محباً للقيللا أيونال ، فكان لا يبرحها أبداً ، وكان يعدها الدنيا التى لا يمكن الخروج منها ، لأن كل ما عداها كان فى رأيه يباباً لا خير فيه

ومضت سنة ثالثة على هذا الحال لم تكن أقل سعادة من السنتين الأوليين ولا أقل بهجة ... بل كانت السنوات الثلاث تعدل بمباهجها إيناس مائة سنة ، وإن لم تعدل بطولها يوماً واحداً وليلة

وبينا كان إريكو مكباً على كتبه فى مكتبه إذا صداع شديد يضطرم فى رأسه فيصرفه عن القراءة ويحسب أن هواء الحديقة ينفعه فيمضى إليها ، ويضطرب فيها ... لكنه يزداد ألماً ، ثم يحس فى صميمه بضيق شديد ، ويشعر بكمد يجثم على روحه لا يعرف مصدره فيفتح باب الحديقة ، وينطلق فى الطريق الموحش الشاحب المؤدي إلى كابرى

ويذكر إيولاندا ، فيؤلمه ألا تكون بجانبه تواسيه وتسليه ، وتمسح الضيق عن فؤاده

وكانت إيولاندا إذ ذاك تزور أباها ، فتحتلك نفس إريكو بأفكار سوداء قاتمة ، وينتبه إلى تعدد هذه الزيارات وكثرتها فيؤوّلها

ثم يمضى فى طريقه حتى يكون عند حدود يشرف منه على المرفأ فيقف ، ويكون الزورق الكبير القادم من سورّنتو قد ألقى مراسيه ، وقد أخذ القادمون وأكثرهم من النساء ، ينزلون فى زوارق صغيرة توصلهم إلى البر ... وأرسى الزورق الأول ، ولكن إيولاندا لم تكن من راكبيه .. ثم أرسى الثانى ... ولكنها لم تنزل كذلك ... ثم أرسى الثالث فالرابع ... حتى لم يبق فى الزورق الكبير أحد ... يا عجبا ! لم لم تعد إيولاندا يا ترى ؟ !

وانتصب إريكو فوق نؤى الشاطىء ، وراح يحملق هنا ويحملق هناك ... وقد أخذت مطارق الصداع تدوّى فى رأسه بشدة وعنف ... ثم خطا خطوات فكان فى المرفأ ، وبدا له أن يسائل الناس لم لم تعد زوجه فيمن عاد إلى كابرى من سورنتو !

ثم ثارت في خاطره فكرة منعكسة ! ذلك أنه ظن أنها ربما تكون قد نزلت من أحد الزوارق الصغيرة إلى البر لكنه لم يرها ، فصعّد فجأة فوق الحدور إلى الصخرة المشرفة على المرفأ ، وراح يبحث بناظريه المتعبين فى الطريق ... فلم ير شيئاً ...

والحق ، لقد كانت الظلمات تتدجى فى عينى إريكو لما استولى عليه من الدهش ، ولما كان يقاسيه من التعب ... فقد صمدت إيولاندا من الزورق ، وهى الآن فى طريقها إلى الفيللا ، بل هي قد وصلت إليها ، وهى الآن تنتظره قلقة ساهمة ... أما هو ، فها هو ذا فوق الصخرة يضرب أخماساً لأسداس ، لا يدرى لم لم تعد إيولاندا « ... أين هى إذن ؟ ومن يدرى ، فقد تكون لم تذهب إلى سورّنتو أبداً ، وإذا لم تكن قد ذهبت فأين تكون يا ترى ؟ ومع من تجلس الآن ؟ أوه ! أتكون الآن فى حضن جسد المسيح ؟ ! »

وهتف السيرين (منادى السفينة) : « ألا من هو ذاهب إلى سورّنتو فليتفضل ... ألا من يريد الأوبة إلى سورّنتو فليتفضل ! »

وكان الظلام قد أوشك يرخى سدوله على البر والبحر ، وأخذت القوارب تنقل المسافرين إلى الزورق الكبير ، ووقف إريكو يحدق ويحملق فى كل الراحلين ... حتى إذا لم يبق إلا القارب الأخير شعر كأن سكيناً تشق حشاشته وتستقر فى قلبه .. ذلك أنه رأى إيولاندا تتهادى فى رشاقة وظرف متجهة نحو القارب وها هى ذي تثبت فتكون فيه

« إنها هى ... هى إيولاندا من غير ما شك زوجتى ... حبيبتى إيولاندا ... أين هى ذاهبة ياربى ؟ ... إنها لم تذهب قبل اليوم إلى سورّنتو ليلا ، وإذا كانت هى ، فأين كانت طوال هذا النهار يا ترى لقد خرجت صباح هذا اليوم لتذهب إلى سورنتو ، فأين قضت نهارها كله إذن ؟ أوه ! إن فى الأمر

سراً رهيباً ... إيولاندا ! إيولاندا ! تعالى ! هأنذا إزيكو ! إرجعى ! ... »

لكنها لم تلتفت إليه ؛

بل نظرت إلى السماء نظرات كنظرات الملائكة ثم رف النسيم فداعب عقارب صدغيها ... وجلست هادئة ساكنة ... ولم تتكلم

وهرول إزيكو نحو المرفأ ، وجعل يهتف ويهتف ... لكنها لم تنبس ، ولم تلتفت إليه ... وأخذ القارب يبتعد ويبتعد ، حتى كان عند الزورق الكبير ، فوثبت إيولاندا فيه وأخذت مكانها ، صامتة كالطيف ... ساكنة كالليل ... غامضة كالروح ...

وقبل أن يتحرك الزورق هبت إيولاندا واقفة ، وولت وجهها شطر الشاطىء حيث وقف إزيكو ، وجعلت ترنو إليه :

« إيولاندا ... إيولاندا ! »

وابتعد الزورق ... ولم ترد إيولاندا ... فانهمرت الدموع من عينى إزيكو

— ٣ —

ثم ثاب إلى رشده ، وصحا مما كان فيه ، وودع البحر بنظرة حزينة ، وضرب فى الطريق إلى أنا كابرى ، فبلغ الفيلا بعد مسرى طويل خيل إليه أنه بلغ به أميالا وأميالا ... ولمحته الكلاب فلم تتحرك ولم تبصبص كدأبها حينما كانت تراه ، بل ظلت ساكنة هادئة كأنما تنظر إلى شبح يتدهدى فى الظلام

وكان البيت من وراء يضرب فى ديجور دامس ، يزيد البحر فى روعته ، وكان كل شىء هادئاً ، والريح توسوس فى سكون فى أغصان الدوح وأفنان الشجر ، فلما عرج إزيكو ليلج فى القصر ، لمح ضوءاً خافتاً ينبعث من غرفة الجلوس ... فدهش أول الأمر ، ثم زال دهشه حينما علل وجود الضوء هناك باجتماع الخدم ليعبثوا ساعة فى غيبة السادة أصحاب الفيلا

وفتح باب الغرفة فى سكون ودخل ...

يا لله ! ! من هذه السيدة النائمة فى الكرسى الفاخر قريباً من المصباح ، يكاد يقر رأسها فى حضنها ؟ !

أوه ! ! إنها إيولاندا ! !

— إيولاندا ، إيولاندا ! !

ولكن إيولاندا لم تتحرك ، بل ظلت غارقة فى سباتها تتنفس فى بطء

وأحس إزيكو بنصف جسمه الأعلى يلف ويصيبه الدوار ، وبالنصف الأسفل يبرد ، ويقف دمه ، ويتحول إلى ساقين من ثلج

— إيولاندا ... أبداً ، أبداً ، لا يمكن أن تكونى هنا ...

لكنها لم تتحرك ، بل ظلت نائمة حالمة ، وضوء المصباح ينعكس على جبينها الجميل الباهت ، وأهدابها الطويلة الساحرة منشرة ظلالها فوق خديها !

— إيولاندا ! ! أبداً ... لست إيولاندا ! لقد رأيتك تركبين فى القارب وتنزلين منه فى الزورق ... أنت ... لا أحد غيرك ... أنت لست إيولاندا أبداً ...

ولم تسمعه إيولاندا ، ووقف تلقاءها ساهماً واجماً ، وقد انتشرت ضبابة كثيفة من اللاوعى أمام عينيه ، وبدأت غيبوبة عجيبة تستولى على

مشاعره ، وأخذ رأسه يتفصّد عن عرق بارد كأنه ينبع من مستنقع ، وكلما نزت منه قطرة جمدت واستحالت إلى حَبّةٍ من بَرَد ! !

ثم رفعت رأسها ببطء آخر الأمر ؛ وفتحت عينيها الواهيتين ، وجعلت تنظر فى غير جهة معينة وبغير وعى ولا شعور

ومرت لحظة بعد أخرى ، وظلت نظراتها غامضة زائغة ، كأنها لا تقع على نفس الأشياء التى تقع عليها نظرات إنريكو ... محفظة الكتب المسندة على الحائط ، والمنضدة ، والطاس البرونزى العامر بالأزهار

ثم نظرت إليه واستطاعت أن تتبينه

وكانت نظراتها هذه المرة نظرات العارف الواثق ، الذى يرنو إلى شىء حبيب يود أن يملأ به قلبه

ووثبت من كرسيها فجأة وأخذت تصيح : « إنريكو ! إنريكو ! أين كنت طوال اليوم يا حبيبى ! ؟ أين كنت لقد تنظرتك طويلاً ، فهل حدث شىء ؟ لِمَ لم تخبر الخدم أنك ذاهب خارج المنزل ؟ »

ووقف إنريكو جامداً كالتمثال ، وقد طاف سرب من الهواجس فى قلبه ، وأخذ يفكر فى المتناقضات التى حاول القدر الساخر أن يتغفله بها ... فلقد وثق وثوقاً تاماً أنها لم تذهب إلى سورنتو فى زورق الصباح ، لأنها لم تعد فى زورق المساء ... بل حصل العكس ، إذ شهدها بكلتا عينيه تسافر إلى سورنتو فى زورق المساء ! وليس محتملاً أن يتسرب الشك إلى ما حدث وتحققه هو بنفسه ... لقد رأى إيولاندا تركب القارب ، وتنتقل من القارب إلى الزورق ، ويهم الزورق ويحتويه الماء إلى سورنتو ... فكيف عادت إذن إلى هذه الغرفة قبل أن يعود هو ؟ وما هذا الذى يسمع ؟ : « أين كنت ، ولم خرجت دون أن تخبر الخدم ؟ » وما هاتان العينان النجلاوان الجميلتان البريئتان اللتان تنفذان فيه فى طهر وسذاجة ؟ هل هذه إيولاندا حقاً ؟ وإن لم تكن هيَهْ ، فمن تكون ياترى ؟ ... ولكن ما هذا السؤال وها هى ذي إيولاندا الجميلة المشوقة الهيفاء ، وها هو ذا ثغرها الدقيق ، وها هو ذا صوتها الموسيقى الساحر ، وهاهى ذى نظراتها النافذة .. وهاهوذا كل شىء يضحك ويقول أنا إيولاندا ؟ !

لقد أوشك المسكين أن يجن ... وعاد الصداع إلى رأسه المختلط كما يعود الوحش الهائل زائراً مزمجراً إلى كهفه السحيق ... وانعقد لسانه فلم ينبس بكلمة ... وأشاح بوجهه عنها فقالت له : « إنريكو ما ذا بك ؟ هل تشكو من شىء يا حبيبي ؟ إنك غير عابس ، أليس كذلك ؟ أأنت مريض ؟ »

فقال لها وهو منتفض من الحمى : « لا ، لا إنه صداع بسيط ، لا تكلميني أرجوك . هلمى بنا إلى الفراش »

وأحست بما يأكل قلبه من ضغن لم تعرفه فيه من قبل إلا مرة أو مرتين لم يبلغا شيئاً من أمره الآن ، فقالت فى صوت حزين :

— « إى يا حبيبي ... هلم بنا ... إنى آتية ! »

* * *

ولم يفه بكلمة وهو ينضو ثيابه ، وكانت أصابعه ترتجف فوق أزراره ضعيفة موهونة وانية ، وسبقته إلى الفراش فتطرحت على ظهرها وأسندت رأسها على الحشية ، وراحت تبحث بعينيها فى سقف الغرفة وقد هرب الدم من وجهها الرائع الشاحب

لم تتحرك إيولاندا ... لم تولِه ظهرها حتى لاتثير

غضبه ، ولم تولِه وجهها حتى لا يظن أنها تحاول إغراءه عما فى نفسه ... وكان مرآها هكذا يثير الحنان ويثير الشجون ويثير كل العواطف العلوية فى أقسى القلوب وأشدها شماسا

ثم شعر فجأة بضميره يحزه ويؤنبه ، فقال لها : « أحسب أنها غلطة يا إيولاندا ... غلطة مجردة ... فأنا آسف جداً : »

فأجابته ، وفي نفسها لهفة شديدة : « أجل . أجل يا إنريكو ... إنها غلطة »

فتراجع إنريكو مشدوهاً وقال : « أى غلطة ؟ كيف عرفت أن هناك غلطة ؟ ! تكلمى ! خبرينى إني أعتبر ذلك اعترافاً بكل ما حدث اليوم »

فقالت له : ولكن يا حبيبى ... لقد قلت هذا فقلته معك ...

فقال : هل حقيقة قلت ذلك ؟ ربما ! لأسلّم أنني مغفل ! بل إنى أومن أننى مغفل ... تنحى ... إفسحى لى مكاناً ! أنا آسف يا إيولاندا

وتنحت قليلاً فانطرح جانبها وقال : قبلينى يا إيولاندا ! لماذا لا تقبلينني ؟

فقالت : لأنك ... لأنك ...

فقال لها بلهجة الآمر : لا . لا . قبلينى !

وانحنت تقبل شفتيه المرتعشتين ، فما كادت تمسهما بشفتيها الذابلتين حتى شم فيهما رائحة غريبة لم يكن له بها عهد من قبل ... رائحة رطبة كرائحة أزهار النيلوفر[1] التى تنمو عادة في المياه الآسنة ... وكانت شفتاها باردتين مُثلجتين ، فسرت منهما رجفة فى جسمه ، وقشعريرة زلزلته زلزالاً

— ماذا بك يا حبيبي ... ماذا بك ؟

— لا شيء ... صداع خفيف

— هل ... ؟ ...

— لا ... ليس الليلة ... هلمى نم يا إيولاندا ... عمى مساء !

— عم مساء يا حبيبى ...

وانطبقت أهدابها كما تغمض الزهرة الذابلة الوسنانة ، وبدت لأنريكو فتنة فى فتنة ، وجمالاً نائماً معه فى سرير واحد ، لا يمكن أن يكون من هذا الجمال الفانى الذى تتلىء به دار الغرور

إنه جمال سرمدى كجمال الملائكة ... نور على نور

أبداً لم تكن إيولاندا هكذا أبداً ...

* * *

وهكذا لم يغمض له طرف ، وكيف ينام من هو فى مثل حيرته ، ومن يضطرب خاطره بمثل وسواسه ؟ ! كيف تكون هذه النائمة بجانبه إيولاندا ، وقد رأى إيولاندا تركب القارب إلى الزورق ، ثم تركب الزورق فيهم بها ، ويبتعد في جوف البحر والليل أميالا ، وهو واقف يشهد ، وقد وقفت إيولاندا كالطيف ترنو إليه ولا تتكلم !

المعقول ألا تكون هذه إيولاندا ... والمعقول أن تكون إيولاندا الآن فى سورّنتو ... أو فى نابلى ... فإذا لم تكن هذه إيولاندا ، فماذا إذن ؟ لم ذهبت إيولاندا إلى نابلى إن لم تكن قد ذهبت إلى سورّنتو ؟

ولكن هذه النائمة هنا من تكون إن لم تكن إيولاندا ؟

ألا يعرف الإنسان زوجته التى عاشرها ثلاث سنين ؟ هل معقول ألا تكون هذه إيولاندا ؟ حقاً إنها جميلة جداً هذه الليلة ، وإن لها لجمالاً ليس يمكن

(١) البشنين (اللوتس)

أن يكون من جمال هـذا العالم الفاني ... لـكنها كانت جميلة هكذا فى جميع الأحيان ... ولا تناقض فى أن يكون جمالها الليلة أكثر نورانية !

اشتدت الآلام فى شق إريكو الأيسر ، وأخذ التبريح ينبض مع القلب فى كيانه ... ولم يفتأ يسأل نفسه أيهما إيولاندا زوجته التى ركبت البحر إلى سورّنتو ... أم هذه النائمة معه فى سرير واحد ، ذات الأنامل الفضة اللينة التى تكاد تنعقد ؟ !

وتحركت إيولاندا حركة فتمرت كتفها العاجية الجميلة المفتان ...

وكأنما أثار مرأى الـكتف الشيطان الساكن بين جنبي إريكو ، فمد يده القوية الجبارة وأمسك اللحم الأبيض الخصيب فى عنف شديد وصاح قائلاً :

« ألا من أنت ... ؟ قولى ! تكلمى ! من أنت؟ من أنت ؟ ! »

ففزعت من نومها وأخذت تصيح :

— إريكو ! إريكو ! دع كتفى ! إن يدك القاسية تؤلمنى

فقال لها : بل قولى مَن أنتِ ... من أنت تكلمى ! من أنت ؟

فقالت له : إريكو ! ماذا أصابك ؟ أمجنون أنت؟ دع كتفى واتركنى أنام !

فقال لها وهو ثائر كالمحموم : كيف أتيت إلى هنا وقد رأيتك تركبين الزورق ؟

فقالت له : لم أكن أنا التى رأيتها ! إنها واحدة سواى !

فقال : واحدة سواك ! عجيب جداً ماذا تعنين ؟

فقالت : أعنى أنك أخطأت ... لقد غمّ عليك يا إريكو !

فقال : وما هذا التعبير الغريب الذى عبرت به « إنها واحدة سواى ! » فمن هى ؟

فقالت : لا أعلم !

فقال لها : « كيف لا تعلمين ؟ إذن فمن أنت ؟ أريد أن أعرف من أنت ؟ ثم تناول المصباح القريب وأدناه من وجهها ، وراح يحدق ببصره فيه ثم قال : ولـكنك إيولاندا ؟ ! كيف أتيت إلى هنا ؟ حقاً إنك إيولاندا !

فقالت له : حقاً أنا إيولاندا ... وها أنت ذاترى !

فقال لها : لـكنى رأيتك تركبين الزورق إلى سورنتو هذا المساء ، فكيف عدت ؟

فقالت له : إريكو ! ما هـذا الذي أصابك ؟ دعنى أنام ياحبيبى ! إنه صداعك الذى يقلب رأسك نم نم ! ستعافى فى الصباح !

ثم مدت ذراعيها وتثاءبت ، وأنشأت تقول : إنى متعبة يا إريكو فدعنى أنم ... لقـد تنظرتك طويلا قبل أن تعود !

وكأنما لمح شيئاً غريباً في فمها لم يعرفه من قبل فصاح بها : « إفتحى فمك ودعينى أنظر إليه ! » فتبسمت وقالت : « ولِـمَ ؟ ! » ثم فتحت فمها الجميل فبدت ثناياها المؤشرة العذاب ، وراح إريكو يحملق فيهن ويحدق ، كما يحدق العالم فى أنبوبة اختبار تحوى كشفاً من كشوف العلم

آه ! يا للا كتشاف العجيب ! لقد لمح إريكو فَلَجاً بين الثَّنِيَّتين[1] العلويتين لم يكن بين ثنيتى إيولاندا مثله ...

لـكنه يذكر أنه رأى مرة فتاة جميلة تشبه إيولاندا ، كان لها هذا الفلج الرائع بين ثناياها العليا

(١) الفلج تباعد بين الأسنان والثنايا هى الأسنان

ترى من تكون هذه الفتاة ... ؟

أوه ! لقد تذكر إنريكو ! إنها فرنشسكا من غير ما شك !

إن ثنايا هذه المرأة النائمة معه فى السرير هى ثنايا فرنشسكا .. ذلك حق لا ريب فيه .. فرنشسكا الميتة ... التى دفنوها فى سورنتو منذ ثلاث سنوات وليست ثنايا إيولاندا ... إيولاندا الحية ... ولا بد أن تكون هذه هى فرنشسكا أيضاً ... هذه المرأة الجميلة النائمة فى سريره ... لأن إيولاندا قد ركبت الزورق إلى سورنتو ، وهو لا يستطيع أن يكذب عينيه ...

إذن ؛ لقد اجتمعت لإنريكو آيتان فى هذه المرأة النائمة فى سريره ! كما اجتمعت له آية ثالثة ، تلك التى رآها عند المرفأ ، وإيولاندا تركب البحر !

أما الآية الأولى فهذه الرائحة العجيبة الآسنة التى عبقت بها شفتاها وهى تقبله ، ثم هذه القشعريرة التى انتشرت منهما في جسمه فزلزلته ... لقد كانت رائحة كرائحة المقابر لا تكون إلا للنيلوفر الذى ينمو فى الماء الراكد ...

وأما الآية الثانية فهذا الفلج فى ثناياها .. الذى لم يكن فى ثنايا إيولاندا شىء منه ، والذى كان الفارق الوحيد بين إيولاندا وفرنشسكا ، حتى كان أبوهما لا يميزهما إلا به !

وانزعج إنريكو ... وامتلأت خياشيمه بسهك[1] كريه لا يكون إلا فى ريح المقابر ... ثم انتفضت جلدة رأسه وانتصب شعر فروتها فصار كالأبر وصاح كالمجنون الذى التاث عقله وضاع صوابه :

« أخرجى ! أخرجى من هنا ! أخرجى ... أخرجى ... أخرجى ! »

ولم يستطع أن يقول غير هذا ... أخرجى ، أخرجى ، أخرجى !

فانتفضت إيولاندا مذعورة تقول : « إنريكو ... إنريكو ... ماذا أصابك ؟ ! لماذا تصيح فيّ هكذا ؟ ! إهدأ يا حبيبى !

فقال لها : « أهدأ ؟ وكيف ؟ خبرينى من أنت أولا ! »

فقالت : « من أنا ؟ أنا إيولاندا !

فقال : كلا ! لست إيولاندا ، لقد رأيت إيولاندا يذهب بها الزورق إلى سورنتو ... لست إيولاندا أبداً

وتنفست تنفسة عميقة ، ثم أرسلت زفرة حارة ظن أنها تسكت نأمتها من بعدها ... ثم انتثرت أناملها فوق الملاءة البيضاء الحريرية كأوراق الورد الذاوية ... وقالت : « بل أنا إيولاندا ! »

وكانت تقولها ، وكأن الصوت يتردد في أذنىْ إنريكو من عالم بعيد قصى ... من عالم غير هذا العالم ... من الآخرة ... ثم قالت :

— « أجل ... أنا إيولاندا ! والفتاة الأخرى التى شهدتها هى إيولاندا أيضاً ... وكل منا إيولاندا . هى إيولاندا ، وأنا أيضاً إيولاندا ، هى مثلى وأنا ... مثلها تماماً ... »

فقال مذعوراً : « إذن أنت فرنشسكا ! ... لا ، لا ... ليس هذا حقاً ... أرجوك ... قولى إنك لست فرنشسكا ! قولى إنك لست فرنشسكا !

وهنا ... حملقت فيه بعينيها البريئتين الجميلتين وقالت له :

— بل أنا فرنشسكا .. وهي أيضاً فرنشسكا ..

(١) السهك محركة ريح اللحم المنتن

الفتاة التى رأيتها تركب في الزورق إلى سورّنتو ! »

فاشتد ذعره وقال :

— إنك ميّتة ! أنت شبح ! أنت روح شريرة !

فتبسمت محزونة وسكبت دموعها وهى تقول :

— « إنها لا تستطيع الحياة بدونى ... وأنا لا أستطيع الحياة هناك .. هناك ! هل تعرف ..؟ .. في الدار الآخرة ... إلا إذا كانت إيولاندا معى ! ولهذا فهى تزورنى هناك فى الفينة بعد الفينة ، وأنا أيضاً ... أزورها هنا ! »

فقال إنريكو : إذن فما شأنى أنا ؟ ! ثم هى ؟ ألم يكن أحجى بك أن تتركيها وشأنها ... إيولاندا التى أحبتك أكثر من كل شىء ؟ !

فقالت : لقد حاولنا ذلك فلم نستطع إليه من سبيل ... لقد تحققنا أننا لا نحيا إلا معاً ولا نموت إلا معاً ! وأننا لا يمكن أن نحيا أو أن نموت مفترقتين ! وأنه لمعالجة ذلك وجب أن نقتسم الموت والحياة على السواء !

وعند ذلك أنّ إنريكو وبكى ، وخبأ عينيه بيديه وراح يسكب دموعه ويقول : « آه ياحبيبتى إيولاندا ! آه يا عزيزتى ... تعالى يا إيولاندا ! » وكأنه ينشج نشيجاً مؤلماً ، ويدوّى بصوته المبلل بالعبرات فى سكون الليل ...

ثم سكت فجأة ، والتفت إلى الفتاة النائمة فى سريره طيفاً روحانياً بلا مادة وأنشأ يقول :

— ولكن لا ... إنها كريهة ممقوتة مثلك ... لقد خدعتنى طوال هذه السنوات الثلاث كما أنك خدعتنى ... لقد تسببت لى فى الكارثة العظمى التى حاقت بقلبى ورانت على نفسى وثلمت شرفى ! إنكم شياطين يا آل دى سانت أجاتا ! إنكم شياطين ! هيا ... هيا ... إلى الجحيم التى أقبلتما منها ! »

ثم مد ذراعيه الجبارتين وقلص أصابعه ، وأخذ يقترب من عنقها ويقترب ... لكنها تبسمت فى غير ذعر ولا خوف ، وقالت له :

— أوه أيها المسكين ! مكانك ! إنك لا تستطيع أن تلحق بى أذى ! إنما النائمة فى سريرك هذا طيف . طيف ! أسمعت ؟ ! خيال ! أتستطيع أن تخنق الطيف ؟

وفتت كلماتها فى عضده فتهاوت ذراعاه ، وتهافت هو فوق الكرسى الذى كانت نائمة فوقه من قبل هذا .. ثم دفن وجهه فى راحتيه ، وجعل يتأرجح من ناحية إلى ناحية ذات اليمين وذات الشمال لحظة تلو أخرى ... ثم راح يكلم نفسه :

— « ماذا أصنع يا ربى ؟ ! ماذا عساى أصنع ؟ من يدربنى ؟ من يهدينى ؟ من يعيننى فى هذه الوحدة القاسية ! من نصيرى يارب ! ... »

ثم وقفت الكلمات فوق شفتيه كالأشباح ... ونهض إلى مشجبه ، وأخذ يرتدى ملابسه كما يرتدى ملابسه رجل ذاهب إلى المشنقة لينفذ فيه حكم بالإعدام !

— إنريكو ! ماذا أنت صانع ؟ إلى أين أنت ذاهب ؟ !

— إنى ذاهب إلى سورّنتو ! ينبغى أن أعرض الأمر على الكونت دى سانت آجاتا !

— إنريكو ! أرجوك ! أتوسّل إليك ! من أجل إيولاندا الحبيبة لا من أجلى ! من أجل أبى الضعيف ! لا تذهب !

— بل ليس بد من الذهاب ! كيف يحتمل واحد من بنى الموتى كل هذا ؟ !

— أرجوك ألا تذهب ! إنه لا جدوى من ذهابك ! بل بالعكس ، فذهابك يقتل أبى المريض الذى يمشى دراكا إلى القبر ، ويطرق بابه بكلتا يديه !

— إن شئت فتعالى معى !

— هذا لا يمكن ... إن هذا يكسر قلبه ويحطم روحه !

— كان الأول أن تفكرى فى ذلك من قبل !

— أرجوك ألا تذهب ... أرجوك

— صه ! أيتها الهولة ! [1] ياسعلاة جهنم ! [2] أسكتى ! من دعاك إلى هنا ؟ !

— إذن أنت مصمم على الذهاب إلى سورنتو !

— طبعاً ، فى زورق الصباح !

— إذن ستلقى إيولاندا حين تنزل إلى البر !

— لا إيولاندا بعد اليوم !

وصمتت فرنشسكا ... فلما فرغ إنريكو من لبس ثيابه قالت له :

— هل تعنى ما تقول يا إنريكو ؟ !

— أجل ... لا إيولاندا بعد اليوم ... إنها ميتة مثلك

ثم أردف وهو ينفتل من الباب : « إذهبي إلى العالم الجدير بك ! »

— ٤ —

ورأى إيولاندا وهى تنزل من الزورق إلى البر لكنها لم تره ! واختبأ حتى تمر .. وغابت عن الأنظار ثم تركت الطريق المؤدى إلى أناكابرى ، وسلكت السبيل الآخر المحفوف على جانبيه بشقائق النعمان ... المؤدى إلى القيلا من جهة البحر ... والذى كانت تلتقى فيه بطيف أختها ليتم اتحادهما قبل أن تذهبا إما إلى إنريكو ، وإما إلى سورنتو !

وهناك ... كانت تنتظرها فرنشسكا !

وبعد أن أخذت يديها الدافئتين فى يديها المثلجتين ، قالت لها :

— هذه آخر مرة نلتقى فيها ههنا يا إيولاندا ؟

— أختاه ! لا تقولى هذا يا فرنشسكا ! مالك شاحبة هكذا ؟ إن فى نظراتك شيئاً غريباً لا أفهمه

— لقد عرف يا إيولاندا ؟ !

— عرف ... ؟ ... أبداً ... هذا لا يمكن ... هذا غير صحيح يا أختى !

— بل ... صحيح يا عزيزتى !

— أرجوك يا فرنشسكا ! قولى إنه غير صحيح ! أتوسل إليك !

— بل هو صحيح ... إنه الحق لا ريب فيه !

وصمتت إيولاندا ... وراحت تبحث بعينيها فى السماء ... وفى البحر ... وفى شقائق النعمان ... وفى الدوح ؛ ثم قالت فى صوت ضعيف وان :

— وماذا نصنع إذن ؟ !

— لا شىء ... إلا أن نذهب معاً الآن يا إيولاندا

— أنا وأنت يا فرنشسكا ؟ !

— وهل تؤثرين البقاء وحدك فى هذا العالم يا إيولاندا ؟ !

— وهل أترك إنريكو وحده يا أختاه !

— إنه لا إنريكو بعد اليوم !

— إذن ... نذهب معاً ... لن أتركك يافرنشسكا

(١) الهولة HarPy من مخلوقات الأساطير نصفها حيوان ونصفها إنسان (امرأة)

(٢) Hell - hag

— لنذهب الآن !

— ولكن ... ألا نبقى قليلاً ؟ لحظات ..

— نبقى لماذا ؟ : إننا لم تعد لنا فى هذه الدنيا لُبَانة !

— وهل نمضى بالطريق الوعر من تحت الصخرة؟

— أجل ... إن زورق النور ينتظرنا ...

— حيث سمدنا معاً أياماً طويلة وأعواماً !

— أجل يا أختاه !

— هلمى ... لنذهب الآن !

— هذا خير ... يجب ألا نبقى فى هذه الدنيا الكريهة المظلمة أكثر من ذلك !

* * *

ثم هبطتا إلى الشاطئ ، ونزلتا فى الزورق ، ورفعتا مراسيه

— كونى أنت عند السكان[1] يا إيولاندا ، فانه يبدو عليك أنك متعبة ... وسأعمل أنا فى المجاديف

— حسناً يا أختاه ! عليك أنت بالمجاديف ...

واتجه الزورق نحو المغرب ... متواثباً فوق الثبج ... متأرجحاً فوق الموج

وذبلت أفنان الدوح فوق الشاطئ الباكى

وذوت شقائق النعمان فوق الصخور الحزينة

وليس فى الوجود إلا ماء وسماء ...

وكل هذا من أجل الأختين الحبيبتين

اللتين لم تعودا قط من رحلتهما إلى المغرب !

دريني خشبة

(١) الدفة

كل ثوب مصرى علم من أعلام الحرية

تغزلها وتنسجها لنا

شركة مصر للغزل والنسج

وتبيعها جميلة متينة رخيصة

أطلبوا منتجاتها من

تجار المانيفاتورة بالقطر المصرى

الصورة المقنعة

للكاتب الانجليزى جيمس ماجوفن
بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

لشد ما كان يسيطر علىّ العجب وأنا أشهد عراكا عنيفاً ما تنطوى دواعيه ، بين ميندو رئيس الشرطة وبين عصابة اللصوص ، فهو ما يهدأ إلاّ أن يكشف مايحيكون فى الخفاء ، ثم هم لايستطيعون أن يظهروا عليه ، وهو عدوهم الذى يلقى الرعب فى قلوبهم ، ويزلزلهم زلزالاً شديداً بما فيه من خفة ومهارة تفوقان ما كان بيديه زعيمهم رافيان . وفى الحق لقد كان ميندو مبعث الخوف والفزع فى قلوب اللصوص جميعاً لأنه كان يحمل لهم بين حنايا ضلوعه ضغينة ثائرة لا تستقر إلا أن يدفع بهم إلى غيابة السجن

وتراءى لى أن ميندو — وهذا شأنه — رجل قد نزعت من قلبه الرحمة والشفقة ، حين رأيته — مرات ومرات — يؤدى واجبه فى صرامة وشدة ؛ غير أن القصة التى أقص الآن تبرهن على خطأ ما زعمت ...

* * *

فى حجرة ضيقة مضيئة فى الطبق الأعلى من منزل فى ميدان (ميلين) جلسا يتسامران فى رقة كأنهما صديقان حميمان برغم تفاوت مابينهما فى السن والطبقة : أما الأولى فهى مسز ليون التى تسكن هذه الغرفة ، استقرت هنا بعد أن تناوحتها أعاصير الحياة ثم قذفت بها إلى هذا المأوى الحقير تُسقى بكأس مريرة من الفاقة والعوز والوحدة ، بعد أن كانت ترشف من رحيق الحياة رضاباً سائغاً ؛ وأما الثانى فهو والتر هوتن طالب طب أولع بفن التصوير والرسم ، أرسلته جمعية المواساة إلى هذه العجوز المريضة ليرعاها ، وهو نبيل المنشأ والمربى فيه الرجولة والكرم والشرف والغنى جميعاً ، وأحس فى المرأة التى إلى جانبه عاطفة شريفة فياضة تتأجج تحاول جهدها أن تكتمها عن الناس ، غير أن الشاب لمس بعضها فى رنّات صوتها وعذب حديثها وعطفها وحنانها ، فاطمأن إليها واطمأنت اليه

وجلس الطالب الشاب — ذات مرة — إلى صديقته العجوز يحدثها يقول وعلى ثغره ابتسامة : « إننى أعتذر إليك — ياسيدتى — فلقد كان يتراءى لى أنك غير من عرفت ، فما كان لى أن أقحم نفسى فى حديث هو بعض قلبك ، غير أن ما أحسست به من حنانك وعطفك بعث فى نفسى أنه كان لك ابن شغلت به زماناً عن كل شىء » وتدفقت الكلمات من بين شفتى الشاب فى غير روية ولا أناة ، غير أنها تساقطت على قلب المرأة كأنها شواظ من نار ، فراحت تحدّق فى الفتى علها تستشف ماوراء ، ثم وضعت يدها على مكان القلب من صدرها كأنها تمسك به أن يفر وهو ينتفض انتفاضاً سريعاً ، وأرسلت زفرة حرّى تتلهب أذهلت الفتى ... ثم ساد السكون ... لقد أثارت كلمات الفتى أحزان قلبها وآلام ماضيها فبدت على وجهها غضوناً غضوناً ، وفى محجريها عبرات تترقرق ؛ ثم انطوت على نفسها كأنما تنشر

أمام عينيها صفحات من تاريخها فيها الألم والسرور في وقت معاً ... واستطاعت — بعد لأى — أن ترتد إلى الفتى تحدثه وفى صوتها الأسى واللوعة : « آه ، يا بنى ، اطو هذا الحديث ، حقاً لقد كان لى ابن ... ابن جميل طاهر كأنه بعض ملائكة السماء ثم ... ثم لجمعت فيه » ثم غلبتها العبرة ... فقال الفتى فى رقة : « لعله قد مات ! » قالت : « نعم ، ودفنته فى قلبى .. لقد فقدته منذ زمان .. لقد خبرونى أنه أصبح لصاً فيه الضراوة والشراهة فماصدقتهم .. أصبح لصاً يستلبنى ويستلب غيرى من متاعه ومن ماله ثم هو يهبط إلى السجن بين الحين والحين ... تلك خواطر تضطرب فى خيالى فتذهب بصوابى وخير لى أن أعتقد أنه مات ... مات فى طهره وجماله كما يبدو فى هـذه الصورة » ثم مدت يدها المضطربة إلى ستر تزيحه فبدت من ورائه صورة هى بعض آيات الفن الجميل ، فقال الطالب : « يا عجباً ! إن هذه الصورة تبعث فى النفس السلوة ! أفتأذنين فأنظر إليها حيناً ، فأنت تعلمين أننى أغرمت بهذا الفن منـذ زمان ؟ » فقالت فى هدوء : « نعم ، فأنا لا أستطيع أن أرد طلبتك جزاء ما حببوتنى من عطف »

وكشف والتر هوتن النقاب عن الصورة ثم ارتد إلى وراء وقد تعلق بصره بها يردده هنا وهناك فى جوانب الصورة ... إنها صورة صبى يتألق حياة وجمالاً وتشع سمات السعادة والرضا من وجنتيه وقد انسدل شعره السبط الذهبى على كتفيه وهو فى مرح الطفولة ونشاطها يتوارى خلف شجرة من أشجار الكريز وفى يمناه غصن أثقلته ثمارها الحمراء وفى أسفل الصورة سطر :

« فى نضوج الكريز ! جيمس ليون فى السابعة من عمره »

وسيطر على الحجرة صمت عجيب ، وقد راع الشاب ما رأى من جمال الصورة وفتنتها ، والمرأة تضطرب فى ماضيها ... ثم بدد الطالب هذا الصمت بقوله : « ما أجمل ! إنها فوق الوصف ! أفتعلمين ، ياسيدتى ، أن ثمن هذه الصورة قد يبلغ مائة جنيه أو مائتين أو أكثر ؟ » وابتسمت العجوز لما سمعت ثم قالت : « هذا حديث سمعته مراراً حين كنت أعيش فى الغبطة والسعادة ، إلى جانبى وحيـدى جيمس ، أما الآن فلاسبيل إلى ذلك لأننى لاأستطيع عنها صبراً ؛ فهى رفيقتى بعد ولدى ، وهى وحى الهوى والحب لأنهـا آخر ما رسم زوجى الفنان ، فهى عندى ترجح مال الدنيا » وتهدّم أمل الطالب حجراً حجراً ثم ارتد يحدق فى الصورة ويقول : « ما أريد أن أشتريها إلا أن تأذنى ، ولـكننى أريد أن أرسم أخرى مثلها » قالت « وهذا أيضاً لا أرضاه فما أطيق أن تتناهبهـا الأبصار » قال الشاب : « إن عيناً لن تراها ، وسأحرسها بعناية هى فوق عنايتك . ولا ضير ، فأنا أدفع ثمن إذنك غالياً » وكانت الـكلمات تضطرب على شفتى الشاب لأنه كان يستشف الرفض من نظرات العجوز . قالت : « أنا لا أستطيع النأى عن هذه الصورة لحظة من عمرى » قال : « ولـكن المال ... ! » قالت : « إنك تحاول عبثاً » وانطوى الفتى على نفسه فى صمت بعض الأنامل من الغيظ وقد شاعت حمرة الخجل فى وجهه من أثر الخيبة ، ثم قال : « لا بأس ، فأنا أنقل عنها هنا ! » قالت : « ولا هذا أيضاً ، وإنه ليحزننى أن أحول بينك وبينها أبد الدهر » ثم

أسدلت على الصورة ستارها وهي تقول : « والآن أطلب إليك أن تمحو ذكرى هذه الصورة من خيالك ، وأن أرى فى صمتك عنها البرهان على أنك رجل ... »

ووجد والتر هوتن فى المرأة إصراراً وعناداً فانطلق من لدنها وهو يحدث نفسه قائلاً : « لا ضير فسأنال بغيتى .. سأنال بغيتى .. وإن أعجزتنى الأيام فسأجد من يسرقها ! »

وابتدأ هو — فى اليوم التالى — يتحدث حديث الصورة فراعه أن يجد فى مسز ليون الفتور والجفاف والصمت ، فهى لا ترد جواباً بسوى ابتسامة فيها السخرية ، أو نظرة فيها الازدراء ، أو كلمة فيها الاستهزاء ، وحز فى نفسه أن يرى فى مريضته ما رأى ، فراح يقلب الأمر بين يدي عقله فبدا له أن يكف عن زيارتها . وفى اليوم الثالث حدثها حديثه فى رقة وظرف ، فقبلت وهى تقول : إنها شفيت وأصبحت فى غنى عن الطبيب . وفى الحق لقد وجدت هى الفرصة لتكبح فيه رغبة تأججت حيناً ، وبدا هو نبيلاً كريماً فأطاع ، فما تلاقيا ...

* * *

وتصرمت أيام ... وإذا والتر هوتن فى نديّ يلعب (البلياردو) مع صديق له ، وعلى حين فجأة راح صديقه يحدثه : « أفتراك تعرف أن هذا المسجل (بوب) هو من شياطين اللصوص نزع عن السرقة واطمأن إلى الأمانة ، غير أنه يستطيع أن يستلب مال أى رجل هنا فى سبيل دريهمات معدودات أو زجاجة من الجمة ليريك بعض مهارته ودقته ، ثم هو لا يهدأ إلا أن يرد المال إلى صاحبه ؟ » فابتسم هوتن للفكرة التى اضطربت فى خياله ، ثم تشعب الحديث فنوناً ... وقبل أن يبرح الطالب المكان انطلق إلى (بوب) يسر إليه بعض أمله فى خشية وحذر ، ثم قال : « و .. وإنه ليتراءى لى أن بينك وبين رجال ممن كانوا رفاقك صلات متينة فتستطيع أن ترشدنى إلى واحد منهم فيه الكفاية والدقة » ودهش المسجل لحديث الشاب وهو يبدو غنياً شريفاً أميناً : « ماذا ؟ أفتريد ..؟ » قال الشاب فى تؤدة : « لا ، ما أريد ذلك إننى أنشد شيئاً ليس هو بالسرقة وإن بدا كذلك .. إنها صديقتى ، وهى تملك صورة فيها الروعة والجمال ، ولقد ضنت بها علىّ على حين لا أريد منها إلا أن تعيرنى إياها فأرسم أخرى مثلها ، وأنا رجل فنان ، والصورة قد بلغت فى الإتقان والدقة ذروة الفن ؛ فإن أنا استمنت بك فما أطلب إليك سوى أن أستعيرها بالقوة أياماً ثم أردها ... » قال بوب : « نعم ، الآن استطعت أن أفهم ما تريد ؛ وإن أنت نقضت وعدك فستقامى وبال أمرك » قال الشاب : « لا تخف فما كان لى أن أغتصب شيئاً هو لغيري يحله من قلبه فى المحل الأول » قال الرجل : « إذن أستطيع ... إن كورنج چيم هو الرجل » قال الشاب : « ومن عسى أن يكون ؟ » قال بوب : « هو أحد أعضاء عصابة رافيان ... وهو شاب فيه الذكاء والنشاط ، وفيه الجرأة والفتوة ، وإنه لقدير » واندفع الشاب ينشر الأمر كله على عينى الرجل فقال : « لا ضير ، فسأصل بينك وبين چيم ، ولكن حذار أن يكون فى الأمر ما يزعج العجوز أو يودى بحياتها ! » قال الشاب : « لا ، لا ؛ إن شيئاً من ذلك لن يكون ؛ غير أن الصورة هى التى جذبتنى إليها فهى قد سمت فوق كل فن هنا ... هنا فى اسكتلنده »

وكان الحديث بين الرجلين همساً فى مكان خلا من الناس سوى رجل زرى الهيئة ، رث الثياب أشعث أغبر ، وقد استلقى على نضد بازاء المدفأة يغط غطيطاً ويتوسد حزمة من الصحف اليومية . وحين انطلق الطالب وصديقه إلى الخارج ، رفع الرجل النائم رأسه فى حذر ورقبة وقد شاع فى وجهه السرور ، وفى جسمه النشاط ، وفى عينيه سمات المكر ؛ ووجد سيمن بنبارك نفسه وحيداً فقفز من على النضد فى خفة ورشاقة يقول فى نفسه : « ها هى ذى مؤامرة أخرى تفيد ميندو ! إن كورنج چيم رجل ظريف إلا أنه قد هوى . يا أسفا ! أهكذا تكون النهاية ؟ إن غاية كل من يسلك سبيله أن يتردى ... » ثم انطلق يشتد إلى دار ميندو

وبلغ الطالب وصديقه دار كورنج چيم ...

أفيكون هذا الشاب لصاً وهو يتنزى أدباً ولطفاً ورقة وطلاقة ؟ لشد ما أذهل هوتن أن يرى فى الفتى الظرف ودماثة الخلق وذلاقة اللسان فهو لا يغلظ فى حديثه ولا ينحط بكلماته إلى العامية المقوتة وهى لغة أمثاله ! إن على وجهه سمات الإجرام ، ولكنها لم تسترع نظر الطالب فهو قد رأى رجلاً مهذباً مصقولاً دونه بعض ذوى المناصب الراقية ... وخُيّل إلى الطالب أنه رأى الرجل من قبل ، ولكن أين ... ؟ متى ... ؟ إنه لا يستطيع أن يجزم

وألقى اللص السمع إلى الطالب وهو يحدثه حديث الصورة ، ويطلب إليه أن يستعيرها له بالقوة ويخلف فى مكانها قصاصة من ورق تنبئ عن الخبر كله ... ثم قال : « ولن تضل الطريق فأنا أهديك إلى هناك ، وهى فى الطبق العلوى ... » قال چيم : « لقد قلت إنها عجوز شمطاء ، فماذا عساى أن أصنع إن هى حاولت أن تدفع عن ذخيرتها ؟ » قال الطالب : « إذن فلا تمسها بسوء ولا تبعث فى قلبها الرعب فخير لى ألا أنال صورة من أن يصيبها أذى ... » قال اللص : « لا ضير ، فما أجرى إذن ؟ » قال : « خمسة جنيهات ، أفيكفيك هذا المبلغ ؟ » قال : « نعم ، وستنال بغيتك بعد ثلاث ساعات »

وتصدّع الجمع ، فانطلق الطالب إلى داره ، وبوب إلى عمله . أما اللص فطار يهيىء أدواته ومصباحه ثم اندفع صوب دار العجوز فى ميدان ميلين وقد انتصف الليل . وفى هذه الآونة كان ميندو وبنبارك يفتشان عنى ... ثم انطلقنا جميعاً نشتد علّنا نستطيع أن نقبض على واحد من عصابة رافيان

بلغ چيم الدار وقد ماتت الحياة فى كل حى ، فخلع نعليه ثم أخذ يرتقى الدرج فى صمت حتى وقف بازاء الباب ، ثم دفعه دفعة فاذا هو على مصراعيه فى غير عناء ولا جهد ، فوقف عند عتبته يتسمع فما سمع سوى صوت غطيط العجوز ، ولمع الأمل فى ناظريه حين ردد بصره الحديد فى أرجاء الحجرة فرأى على ضوء نار المدفأة الصورة المقنعة معلقة فراح يحدث نفسه : « لا بأس ، سأختطفها ثم أرتد إلى الخلاء ، وستعلم هى كل شىء عند انبلاج الصبح ! » ثم سار الهوينى فى حذر وخفة كأنه شبح

لشدّ ما أفزعه أن يسمع غطيط العجوز ينقلب فجأة إلى أنات اليقظى وهو على قيد شبر من الصورة ! لقد اضطرب قلبه وانتفض جسمه ووقف فى مكانه لا يستطيع حراكا ؛ غير أنها ما لبثت أن اندفعت فى غطيطها ، فأمسك هو بالصورة ينزعها عن مكانها

ووقعت الواقعة ... لقد أبصرت بالشبح من خلال الضوء الضئيل المنبعث من نار المدفأة، أبصرت به وهو يريد أن يستلب الصورة ... وفى غمضة عين أرسلت صيحة دوّت فى أرجاء الحجرة ثم ألقت بنفسها على الضيف الثقيل تتشبث به ، فهمس هو فى أذنها : « دعينى أيتها اللعينة ... دعينى وإلاّ صببت عليك صوت عذابي ! » قالت : « لا ، لا أستطيع » ثم صاحت : « العون ! هيا ! اللص ! القاتل ! آه ! » ثم ماتت الصيحة فى أضعاف أنة ضعيفة واهية حين دفعتها يد اللص القاسية فانحطت على أرض الحجرة كأنها قطعة من حجر . وانفلتت الصورة من يده فأضاء مصباحه وهو يقول لنفسه وقد آلمه ما كان : « لاضير ، فهى ستنال الصورة بعد أيام . ولكن ... ولكن لماذا قسوت عليها ؟ الآن أستطيع أن أنطلق ... » وساد السكون مرة أخرى فراح يبحث عن الصورة ... ووقع بصره عليها ...

وانتفض اللص انتفاضة المحموم تعركه الحمى عركا شديداً ... انتفض حين رأى فى الصورة طفلا فيه الجمال والطهر والمرح فى وقت معاً . لشد ما آلمته الصدمة فأذهلته عن نفسه فانطلق إلى العجوز الملقاة على الأرض لا تحى ولا تحس وهو يتحدث وفى رنّات صوته معنى الأسى والحزن « أماه ! آه ، يا أماه ! ياويح نفسى ! لقد قتلتها ! قتلت أمى ، ياربّاه ! » ثم أمسك بيدها الباردة وراح يحاول عبثاً أن يردها إلى رشدها ... واستطاعت العجوز — بعد لأى — أن تحدّق فى الرجل الذى إلى جانبها ، فانبسطت أسارير اللص فصاح : « أماه ! أماه ! إنه أنا جيم ابنك ! » وانفرجت شفتا المرأة فى عناء عن مثل الهمس : « لا ، لست أنت ، لقد مات ! » ثم انغمرت فى ذهول شديد ...

وعلى حين فجأة اندفع الباب بشدة وصوبت أنا المصباح نحو اللص وارتمى عليه ميندو وبنبارك فى وقت معاً ليحولا بينه وبين أن يفر . غير أن الرجل لم يرتد إلى ورائه ، ثم ينقض علينا كأنه النسر الكاسر يدافع عن نفسه شأنه فى كل مرة ؛ بل ظل فى مكانه هامداً لا يتحرك وهو يقول فى حزن وانكسار : « لقد قتلتها ! قتلت أمى ! فخذونى إلى المشنقة واشنقونى تحت سمع العالم وبصره » وصاح بنبارك فى طرب : « آه ها ! » ثم أخذ يتهادى فى بهجة وسرور وهو يعبث بقطعتين من النقود ذهبيتين فى يده ويقول : « لقد هددتني يا مستر جيم بالقتل ولكنه يخيل إلىّ أن السكين قد قطعت فى الناحية الأخرى . والآن وقد ضيقت عليك الخناق فلا تجد مهرباً فخذ هاتين القطعتين مكافأة ذهبية لك » ولكن اللص فى ذهوله لم يع من شمائة خصمه حرفاً ، فهو يردد كلماته ما يمسك عنها

وأمرني ميندو فوضعت فى يدى اللص غُلاًّ ثم سقناه إلى دار الشرطة على حين استدعينا طبيباً يعالج العجوز

* * *

وفى صباح اليوم التالى بدت مسز ليون معصوبة الرأس من أثر جرح فى جبهتها أصابها حين انطرحت على الأرض وهى تحاول أن تنقذ الصورة من بين يدى اللص ، وهى تتوكأ على امرأتين . وحين استقر بها المقام طلبت إلينا أن نرى السجين وهى تقول : إن خطأ قد وقع بالأمس تريد هى أن تكشف عنه ...

وتصرمت ساعة من زمان وهى فى حجرة اللص فماذا كان ؟ إن واحداً لا يستطيع أن يعلم ماذا كان منها وماذا كان منه ؟ وخرجت من لدن اللص لتجلس على كرسى بإزاء المدفأة وعلى وجهها سمات الهدوء والطمأنينة وفى عينيها آثار عبرات مهراقة... وأقبل ميندو عند الظهر فنادته تسر إليه بحديث طويل ويده بين يديها ودموعها تتدفق فى غير هوادة ولا رفق ، وهو يسألها حيناً ويسمع حديثها حيناً آخر وفى النهاية قالت له : « لا تنس أننى أمه وهو وحيدى ، فاعف عنه واصفح كما تنتظر أنت الغفران من الله » فتطلق وجه الرجل من عبوس وحيّاها فى احترام ، ثم انطلق ...

ثم ... ثم نودى جيم للمحاكمة وأقبلت مسز ليون فخلفت اليمين وسئلت أول من سئل

قال النائب : « أتعرفين هذا الجانى ؟ »

قالت : « نعم ، وهو ابنى » فأرسلت هذه الكلمات دوياً من الهياج والهمس فى أرجاء المحكمة

ثم سألها النائب : « أتتهمينه بالتسلل إلى دارك والتعدى عليك ؟ »

قالت : « لا ، إن جيم لا يستطيع أن يجد فى قلبه القسوة فيرفع يده ليضربنى وأنا أمه »

قال : « كأنك تريدين أن تقولى إنه ليس هو الذى اعتدى عليك ، فكيف إذن أصيبت جبهتك؟ »

قالت : « لست أدرى ، وكل ما أستطيع أن أقوله هو أننا لم نتلاق منذ سنوات وسنوات فلما رأيته إلى جانبى ألقيت بنفسى بين ذراعيه وذهلت فما أفقت إلا والطبيب يضمد جرحى »

وسمع السجين كلمات أمه فما استطاع أن يكتم فى نفسه أنة محزون يندم على ما فرط منه وفى وجهه أثر الخزي والعار

قال النائب : « أليس حقاً أنك كنت فى وقت ذات مال فرقه هذا السجين بدداً وخلفك بين براثن الوحدة والفقر ؟ »

قالت : « إن مالى هو ماله ، غير أن رفاق السوء دفعوا به إلى الهاوية فتردى . وإنى أطلب إليك — وقد علمت كل أمره — ألا تسألنى عن شىء ... » ثم أجهشت بالبكاء

فمال النائب نحوى وهو يقول : « إن العجوز تصر على ما تقول فادع ميندو »

وجاء ميندو فسأله النائب : « أتعرف هذا الرجل ؟ »

قال : « نعم ، إنه كورنج جيم »

قال : « أفتعتقد أنه اقتحم باب مسز ليون بالأمس ليسطو عليها ؟ »

قال ميندو : « لقد خيل إلىّ ذلك غير أننى لمست خطيئتى حين علمت أنه كان يزورها »

وألح النائب على ميندو يريد منه اعترافاً ولكن من ذا يستطيع أن يرغم هذا الرجل الصعب — وهو صائد اللصوص — أن ينزل عن رأيه ؟ لقد كان عبثاً كل ما بذل النائب من جهد ، فألغيت التهمة وانطلق كورنج جيم ليسدل على نفسه الشريرة ستاراً كثيفاً من النسيان . ثم ليكون ... ليكون هو جيمس ليون ، وليستقر فى قرية على مسافة نائية منا رئيساً لعمال مصنع النسيج هناك ، يعيش إلى جانب أمه الحنون فى هدوء وطمأنينة وقد سكن إلى الجد والنشاط والأمانة والشرف . لا يحيد عن الطريق المستقيم

كامل محمود حبيب

الجنية العاشقة

للكاتب الفرنسي أميل زولا

بقلم السيد صلاح الدين المنجد

في سنة ١٨٦٤ كتب أميل زولا أقاصيص رائعة صدرت تحت عنوان « أقاصيص إلى نينون Contes à Ninon » صور الكاتب فيها صفحة من صحائف صباه ، إذ كان في البروفانس إلى جانب فتاته نينون ينشد السعادة ويتذوق اللذة ، وذكر كيف كان يقص عليها ، كل يوم ، فوق الهضاب ، وبالقرب من الينبوع وبجانب الموقد ، أقاصيص طريفة : هي ذكرى لشباب ذابل وحب خالد

وزولا من أكبر الكتاب الذين عرفتهم فرنسا في القرن الماضي ، كان مفناً ، إذا قرأت كتاباته وجدتها تفيض بالحياة وتتدفق بالشعر ؛ وقد كان يميل إلى الابداعيين ، ويحذو حذوهم ؛ وألف قصصاً كثيرة ، يظهر لك من خلالها أسلوبه المشرق ، الذي جمع بين سحر الفن وجمال التصوير

أرهفي أذنك يانينون ! إن مطر ديسمبر يلطم الزجاج ، والهواء يرسل أنينه ، ويردد شكواه .. إنها أمسية من الأمسي الباردة ، التي يقضقض البائس فيها من القر ، أمام قصر الغني الغارق في اللذائذ تحت توهج الذهب ! . . . إخلعي حذاءك هناك ... وضعي حليتك الثمينة هنا .. وتعالي إلى أحضاني ، فسأروي لك قصة من أروع قصص الجان

نينون ! هناك في ذروة الجبل قصر عتيق ساد الظلام فيه وجثم الحزن فوقه .. ما ترين إلا أبراجاً صاعدة نحو السماء ، وأسواراً منيعة شماء ، وجسوراً متحركة جُهزت بالسلاسل ، ومُلئت برجال أولي بأس شديد ، لبوسهم الحديد ، يسهرون الليل والنهار على الشرفات ، ولا يجدون راحة أو سلوة إلا بجانب سيد الحصن الجبار ، الكونت أنكيران

لو كنت رأيت ذلك الكونت يانينون ، وهو يتنزه في مماشي القصر الضيقة ، وسمعت قرقعة صوته ينذر بالوعيد ، إذن لأصابك الجزع ، واضطربت كما تضطرب أوديت ابنة أخيه ؛ تلك الحسناء الرعبيب التي تفتحت أنوثتها بين فرسان قساة ، كما تتفتح زهرة الأقاح ، إذا تنفس الصبح ، تحت قبلات الشمس الضحوك بين أشواك الجبال

كانت وهي طفلة ، إذا أبصرت عمها الشيخ ، وقد ضمت إلى سَحْرِها الدمي زرّت[1] عيناها وهبت مذعورة تذرف الدمع . أما الآن فهي في ربيع الحياة . إن تديها يافتاتي يبثان الشكوى ويرسلان الآهات . ومازال الفَرَق يستولي على نفسها كلما طلع أمامها هذا المحارب القديم ...

وكانت تأتي إلى برج بعيد ، تتلهى فيه بوشي أعلام ورايات . فإذا أعياها هذا العمل المؤنس لجأت إلى الله تبثه حزنها وتدعوه ، أوقلبت طرفها في السماء الضاحكة وسرحت بصرها في الروح الحادرة ... وكم من المرات ، يانينون ، كانت تقوم من مهجعها وقد سجا الليل وهف النسيم لتنظر إلى النجوم ... وكم من المرات كان قلبها يخفق لهذا المشهد الساحر ،

(١) يقال زرت عينه إذا توقدت من خوف أو غيره

ونحن إلى تلك المروج المتواثبة نحو الأفق البعيد ، ثم تسائل الكواكب عن ذاك الشيء الذى يتلاعب بروحها ويثير شجونها ...

ودت بعد تلك الليالى التى ساهرت فيها النجم وبعد ذلك الحنين اللاهف للحب لو أنها ضربت يوماً عنق هذا الفارس الهرم فوَقصَتْها[1] ولكن ، وا أسفاه ! ما كان لها حول ولا قوة ... إن كلامه جاف يرعب ، وإن نظراته جامدة تفزع ... فكانت تأخذ الإبرة مضطربة الحواس واجفة القلب وتعود إلى وشيها الشاق !

إنك تأسفين ، نينون ، لتلك الحسناء ! إنها كالزهرة الريانة ذات العبير الطيب والأريج الشذى التى يصدف الناس عن رائحتها ويلهون عن جمالها ... !

كانت ترنو يوما بعينين حالمتين الى قُمريّتين تريدان الهرب من الحصن ، فسمعت صوتاً عذباً يتعالى عند باب القصر الكبير ، فانحنت من الكوة ، وإذا شاب حلو القسمات وسيم المنظر ، تأنس العين لمرآه ، يطلب المبيت ، مرسلا أنشودة بصوت رخيم ، ما فهمت لها معنى ولكن خفق لها قلبها . ورأرأ الدمع فى عينيها ، ثم فاض ... فساقطت درآ من نرجس ، وبللت غصناً من المارجولين[2] كان بين يديها ..

وساد سكون عميق ، وبقيت الأبواب مغلقة .

ونادى فارس من أعلى الأبراج قائلا :

إذهب وشأنك أيها الغريب ، فليس هنا سوى فرسان محاربين ..

وهمّ الطارق أن يذهب . ولكن أوديت ، التى علق بصرها به ، فما يطرف أو يتحول ، تركتْ الغصن رطباً بالدمع ، يفلت منها ، ليقع تحت أقدامه ورفع الشاب رأسه ، فاذا وجه صبوح يطل عليه ... والتقط الغصن ليشبعه لثماً وتقبيلا . ثم ابتعد عن القصر ، وهو ينظر كل لحظة إلى الفتاة .

فلما غيبه الطريق المنحدر قامت أوديت تدعو الله وتصلى له ، ثم شكرت للسماء وأحست السعادة فرقصت فرحا ، وهى لا تدرى لكل ذلك سبباً ..!

وإذ كان الغسق جلست إلى راية تصلحها ، وهى تفكر فى ذاك الفتى ، ثم داعب النعاس أجفانها فأذبلها وارتمت على فراشها ... واستسلمت لنوم غرق مضطرب ، ورأت حلُماً ... إنه حلم ساحر يانينون ! خيل إليها أنها ترى غصن المارجولين الذى أفلت من يديها ، وإذا بجنيّة ، ما رأت العين أجمل منها تخرج من زهرة تتفتح بين أوراق الغصن المرتعشة . ولها أجنحة من اللهب ، وتاج من الأزهار ، تتدثر برداء أزرق ، لونه رمز الأمل ، وتناديها بصوت حلو النبرات :

أوديت ! أنا الجنية العاشقة ! أنا التى أرسلت إليك لوئيس هذا الصباح ذاك الفتى ذا الصوت الحنون ... أنا التى ، وقد رأيتك تذرفين الدمع ، جئت لأجففه .. أضرب فى الأرض ، وأؤلف بين قلوب العاشقين . ! ... أزور الكوخ ، كما أزور القصر ، وأجمع عصا الراعى إلى صولجان الملك . أنا التى أزرع الورد تحت أقدام المحبين .. ! ثم أربط بينهم ببنين تختلج القلوب لهم فرحاً . أعيش بين الأعشاب ، وفى جذى الموقد المتأكلة ، وتحت رفارف أسرة الأزواج ... ! وحيث أضع قدمى فهناك يقوم حديث الغزل ، ويكون همس القبل ! لا تبكى أوديت ، فقد أتيت لأجفف دموعك ...

وعادت الجنيّة إلى الزهرة التى خرجت منها ، واختفت هناك ...

---

(١) وقصتها أى كسرتها يقال وقص الرجل إذا دقت عنقه

(٢) Margolaine : السمسق ، وهو نبات طيب الرائحة له أزهار كأزهار الياسمين ..

أنت تعرفين يا نينون أن جنيتنا فى الوجود .. انظري إليها ترقص فى الموقد ، وتألمي لمن لا يفكر بها

واستيقظت أوديت وأشعة الشمس تنير غرفتها والعصافير تصدح بالأغانى والنسيم الصافى يداعب شعرها الغدودن الأشقر ، وقد حمل عبير القبلة الأولى التى سرقها من الأزهار على عجل .. فنهضت والنفس مفعمة بالفرح ، وقضت يومها تغنى تارة وتنفض[1] الحقول أخرى ، وترسل ابتسامة رقيقة لكل عصفور يحلّق ، والأمانى تغريها فتقفز هنا وترقص هناك ، ثم تضرب كفيها الصغيرتين بعضهما إلى بعض بقوة وسرور ...

فلما كان الطفل تركت مخدعها ، وهبطت إلى ردهة القصر الكبرى فوجدت فارساً يصغى إلى حديث عمها الكونت ، فمددت إلى مغزلها وانتبذت مكاناً إلى جانب الموقد تسمع إلى صُرصُر يغنى .

ونظرت إلى الشاب ، فإذا غصن المارجولين بين يديه ، يا لله ! إنه لوئيس ... وعلت وجنتيها حمرة ونضرة ، وكادت ترسل صرخة تدوّى فى فضاء الردهة ، ولكنها انحنت على الموقد تؤرث النار فيسمع لها حسيس كأنه بث الأحزان ، وبتأويل اللهب ، ويفور الموقد ، وتهيج النار . وفجأة ينبجس من الموقد نور شديد وتظهر الجنية العاشقة ، وقد افتر منها الثغر ، ومال منها الجيد ... فتجمع ثوبها الأزرق بين يديها ، وتنطلق فى الغرفة دون أن يراها أحد إلا أوديت ...

أما الكونت فكان مسترسلا في حديثه يقص نبأ معركة هائلة وقعت مع الكفار ، ويقول :

— ... فتحابوا يا أولادى ... ودعوا أشباح الشيخوخة الزاهدة . أبقوا لها الأقاصيص بجانب النار المشتعلة ، ولا تجمعوا الآن إلى زفير النار سوى وسوسة القبل ... ! سيكون لكم يا أولادى من ذكرى هذه الساعات التى ذقتم بها اللذة ما يخفف أحزانكم وهمومكم فيما بعد ... والمرء عندما يحب وهو فى السادسة عشرة من عمره ، فالكلام لا يجديه آنئذ نفعاً . إن نظرة واحدة خير من خطاب طويل . تحابوا يا أولادى واتركوا الشيخوخة تتكلم .. !

وأظلّت الجنيّة العاشقين بأجنحتها ، فغدا الكونت لا يرى لوئيس الحبيب ، وهو يطبع قبلته الأولى على جبين أوديت الحبيبة المرتعشة !

نينون ! يجب أن أتكلم لك عن أجنحة جنيّتى .. لقد كانت شفافة كالبلور ، دقيقة كأجنحة الذباب ، ولكنها أيضاً كانت تنقلب إلى ظلام دامس كثيف فلا يتجاوزها عندئذ رنين القبلات ووجيب الأفئدة ... ليكون العاشقان بنجوة من العيون ! وهكذا ... وبينما الشيخ غارق فى حديثه عن معركة المؤمنين والكفار ، كانت معركة القبل قائمة بين لوئيس وأوديت ... !

لقد حضن الجسم الريان ، وقبل الخد الأسيل ودغدغ النهد الناعم ، وتمتع بالطرف الوسنان ... والشيخ فى حديثه غارق مسترسل ... !

ليت شعرى ما تلك الأجنحة ... ؟ إن الفتيات ليجدنهن أحياناً — كما قيل — فيأمنّ شر الأبوين ويتمتعن بالحبيب ، أحقّا ما يقال يا نينون ... !

واختفت الجنية العاشقة ، وقد أنهى الكونت قصته ، وذهب لوئيس شاكراً لمضيفه الكونت ... ونامت الفتاة تحفها السعادة ، والأمانى حولها حوّم ترفرف ، والعين قريرة والبال هادئ

(١) نفض الرجل المكان : إذا نظر إليه ليرى كل ما فيه

أما هذه الليلة ، فقد رأت جبالاً كلها أزاهير ، زينت بألوف من الكواكب المصابيح نور كل منها أشد وضاءة من نور الشمس ....

وأصبح الغد ، فلما متّع النهار نزلت إلى حديقة القصر والتقت ثمّ بفارس حياها فردت له التحية ، ولما ابتعد عنها نظرت إليه ، فإذا غصن المارجولين معه رطب بالدمع . وها هي ذي أوديت تلتقي بالحبيب مرة أخرى ... لقد عاد إلى القصر بعد أن تنكر بزي فارس . أواه يا نينون ! لشد ما يكون السرور عظيماً عند ما تلتقي الحبيبة فتاها في وضح النهار ...!

وأجلسها على مقعد مخضوضر من العشب تحت ظلال السنديان ، واللسان صامت والعقل شارد ، وراحت العيون تتناجى ... والأفئدة تصغى ...

لن أقول لك يا فتاتي ما تحدثت به شجرات السنديان عند ما رأت الحبيبين . إن في سماع الحبيبة وهي بين يدي الحبيب لذة ما فوقها لذة ، لقد جاءت الطير كلها تستمع إلى لحن الحب ، وتبني أعشاشها فوق تلك الشجرات ...

وسمعت الفتاة ، على حين بغتة ، وقع أقدام الكونت ، وهو يمشي في الممر الطويل ... فأصابتها الرجفة وانتظرت شراً مستطيراً ... ولكن ... إن الينبوع لا يزال يرسل خريره الحلو الشجي ، وها هي ذي جنيتنا الحسناء تأتي فتظلل العاشقين بأجنحتها والهواء رخيّ ، ويختفيان عن الأبصار ، ويعاودان حديث القبلات ... ويقترب الكونت ، فيأخذه العجب ! إنه ليسمع أصواتاً ولا يرى أناساً !

وانبرت الجنية الحسناء تقول :

— أنا حامية الحب ، أضرب على بصر من لا يحب غشاوة فما يسمع أو يرى ! لا تخافا بعد اليوم أمراً ، أيها العاشقان الجميلان ... بل أجيبا داعي الحب في وضح النهار ، والجو صاف ، وفي الليل والنسيم يرف ، وبجانب الينابيع والأوراق تحفّ . أرسلني الرب لأصرف عنكم أذى الرجال ، هؤلاء الساخرين من كل فضيلة ، وحباني بأجنحة من لهب وقال : « اذهبي ... ولتتحاب القلوب ! » فيا بشركم ... إني هنا ، أحرس الحب وأرعاه ...

ثم ذهبت تلتقط الندى غذاءها الوحيد تاركة وراءها الحبيبين ، وقد عانق فم بفم واشتبكت كف بكف ... !

وبقيا حتى الليل ، فلما دنت ساعة الفراق ظهر الأسى في نظراتهما فأسرت الجنية إليهما بقول يخيل أنه راقهما ، فانبسطت أسارير وجهيهما إذ سمعاه . ثم رجواها شيئاً . فأخرجت قضيباً معها ، ولمست به جبيني العاشقين

وفجأة ... أوه ! يا نينون . مالك دهشت هكذا انتظري سأتم قصتي ...

وفجأة انقلب لوئيس مع أوديت إلى غصنين من أغصان المارجولين : نعم من المارجولين الغض الزاهي. نبتا جنباً إلى جنب ، ولامست أوراق الأول أوراق الثاني ، واشتبكا . هنا يا فتاتي ... تتفتح أزهار لن يمد الذبول إليها يده ، بل تبقى ... ويبقى أريجها متضوعاً إلى الأبد !

* * *

والآن يا نينون ، عند ما نعود عند المروج الخضراء . سنبحث عن أغصان المارجولين وسنسألها في أية من الزهرات تختبئ الجنية الحسناء . إن لقصتي يا صديقتي مغزى ، وما كنت لأقصها عليك إلا لأنسيك مطر ديسمبر الذي يلطم الزجاج وأبعث فيك هذا المساء شيئاً من الحب ... نحوي ... أنا !

صدوح الدبه المنجد

النافذة

للكاتب الفرنسي بيير لويس

بقلم السيد عز الدين عزوزي

سأحدثك في هذا المساء ياصديقي العزيز عن سبب امتناعي عن الزواج ، لأنني طالما رأيتك مهتماً لمعرفة ذلك ؛ وإن سؤالك هذا لأحب إليّ من صمت الآخرين الذي أجد فيه من الخفايا مايجرح كبريائي

ليس أحد في الواقع يجهل ما عليه أسرتي من الغنى وما خلفه والدي من الأموال الكثيرة ؛ وإذا لم تتزوج فتاة غنية مثلي فإن سبب ذلك يكون في الغالب : إما طمعها ، وإما قبحها ، وإما عاداتها وأخلاقها . وأنا أترك للناس محض الاختيار في أن يحكموا عليّ بجميع تلك الفروض ، أو أن يختاروا واحداً من بينها

ثق بأنني ما رفضت يد الراغبين في الاقتران بي لشيء في أنفسهم ؛ لا ، لا ... إنني ابتعدت عن الزوج الشرعي وعن الخليل ؛ وكان ابتعادي عنهما ممزوجاً بخوف لا أدري له تعليلاً ، ولكن هذا الخوف أخذ يقل في هذه الأيام ؛ ذلك من فعل الأربعين ، وطمأنينة الكبر ، وشعوري بأن الناس قد انصرفوا عني انصرافاً كلياً ، ولم يعد يعنيهم من أمري شيء

إن قصتي ليست قصة حب بائس . لا ... أنا لم أحب في حياتي أحداً قط

لقد أصبحت ، يا عزيزي ، عجوزاً في مساء يوم كان عمري فيه سبع عشرة سنة ! أصغ إلى ما سأقوله لك فإن قصتي سوف لا تكون طويلة فتمل استماعها !

قد تستغرب وتتساءل لماذا سلبني هذا الحادث البسيط كل أفراح المستقبل ، وإنك لتقرأ كثيراً من أمثاله في الصفحة الثالثة من كل جريدة !

لقد كنت متأثرة به في كل حياتي ؛ لأنني شهدته أمام عينيّ وعلى بعد خطوة مني ؛ وأنا متأكدة من أنك سوف لاتشعر بشيء مما شعرت به لأنك ستسمعه كما تسمع حكاية من الحكايات أو قصة من القصص !

* * *

وضعت الآنسة «ن» جبهتها على يدها وابتدأت تقص عليّ الحادث ونظرها مثبت في الأرض لاترفعه إلى وجهي لحظة قالت :

« منذ خمس وعشرين سنة كنت أقيم مع والدتي في نزل قديم مقابل كنيسة « سانت سُلبيس » في ضواحي باريس ؛ وكان هذا النزل خاصاً بالطبقة الراقية ، على بساطة في مظهره وتواضع ، وكانت جميع نوافذه تطل على شارع ساكن كسكون ممر في غابة من الغابات .

كان الفصل فصل صيف ، وكانت غرفتي التي أنام فيها مع والدتي شديدة الحرارة ذات مساء ، حتى أنني لم أستطع أن أنام ، فخطر لي أن أفتح النافذة ، ولكنني خشيت أن أوقظ أمي . وبعد أن

أرقت ساعة بكاملها نهضت من سريرى ولبست جوربى ، ونزلت السلم العريض مرتدية قميص النوم حتى وصلت إلى ردهة الطابق السفلى . ولا بد من أن تعرف جيداً موقع الردهة كي تتبين الحادث كما وقع بحذافيره .

كان للمنزل سابقاً حديقة تمتد على موازاة الشارع ، ثم بيعت هذه الحديقة لبعض البنائين ، وأخذت البلدية منها قسما جعلت به الشارع فسيحاً أكثر من ذى قبل .

كانت نافذة من نوافذ الردهة تنفتح عن زاوية مظلمة خفية لا تصل أشعة (الغاز) إليها ، ولا يستطيع المرء أن يتبين ما فيها ، ولو خرجت عينه من محجرها لشدة التحديق !

لما وصلت إلى الردهة التفت فرأيت أنهم لم يغلقوا هذه النافذة الرهيبة ، وإنما أغلقوا مصراعيها الخارجين ، فصعدت إليها ، وجلست فوق عارضتها إذ كانت قوای قد وهنت من شدة الحرارة ،وأخذت أستنشق برودة الليل بنهم ، فأحسست أنها سرت فى جميع جسدى ، من أم رأسى إلى إخمص قدمى !

لقد كانت هذه اللحظة هى الأخيرة من لحظات حياتي التى شعرت فيها بسرور صاف لا يكدره أسى ولا تشوبه شائبة ذعر أو قلق !

لم أكد أترك مكانى حتى رأيت فى الجهة المقابلة للمكان الذى أنا فيه شخصين : رأيت رجلاً يقود فتاة إلى هذه الزاوية المظلمة الخفية !

كان الرجل من أولئك الذين يعملون ثلاثة أسابيع ويتعطلون بعدها ستة أشهر ، لأن جهالهم يخولهم احتقار العمل الشريف ، وكانت الفتاة جميلة رياعة فاتنة فى الخامسة عشرة من عمرها ؛ تحبها أمى وتعطف عليها وتغمرها باحسانها ، لكثرة ما تشترك معي فى أعمالى

كانت لابسة ثوباً أسود قصيراً جداً ، وقميصاً رمادياً ، ورافعة ضفيرتها الصغيرة فوق رأسها الأشقر ، وكان الرجل ممسكا بكتفيها يقول لها فى لهجة المستعجل :

— وهنا هل تريدين ؟

فتجيب جواباً مذعوراً :

— دعنى ... دعنى

يا عزيزى ، لو قدّر لك أن تسمع جوابها له لقلت إنها تعيده للمرة المائتين

قال لها الرجل : ألم تقولى نعم ؟ لماذا تنقضين قولك ؟ إننا هنا فى مكان مناسب ، لماذا لا تودين ؟

— لا ... ليس هنا ... ليس هنا

— إذن أين تريدين ؟ أنت لا تحبينني ، كما أننى أصبحت الآن لا أحبك !

أشارت الفتاة إليه إشارة السلب ؛ فاشتد غضبه وصاح بها : « تى تين ، انظرى إلىّ . تكلمي فى وجهى . هل تصدقينى فى حبك ؟ نعم أو لا ؟ إذا كان لا ، فأنت تعلمين أن لدىّ كثيراً غيرك من الفتيات الجميلات

لم ينته الرجل من كلامه حتى انفجرت المسكينة تبكى بكاء مرًّا طويلا ، وهى متكئة على عارضة الشباك حيث كنت مستندة بكتفى ثم قالت له :

— نعم ، إنى أحبك حباً جماً ، ولكن ليس لهذا الأمر ، ليس لهذا الأمر ... آه لا أدرى كيف أكلمك ، ولكن ليس هذا هو الحب . أحبك لأنك لطيف ... لأنك تكلمنى على غير ما يكلمنى الآخرون ؛ لأننى أشعر بسرور وفرح عميق ساعة أراك عائداً إلى النزل فى المساء . إننى أحب أن أعانقك . أعانقك قدر ما تريد فى كل مساء ، فى أى وقت تحب . ولكن منذ أخذت تكلمنى فى هذه الأمور ... لا ... لا أريد . على الأخص مع رجل مثلك يخيّل إلىّ أن العاقبة تحمل فى طياتها شرًّا مروّعاً ! !

رفع الرجل أكتافه ولفت رأسه لفتة استخفاف ورحمة وقال : لك الله من ساذجة مقدسة !

وحدثها بكثير من الأقوال التى أخجل أن أذكرها لك ؛ ثم سحب من وسطه سكين جزار تشبه سيفاً وغرزها فى النافذة فى محاذاة صدرى وقال لها بصوت يخنقه الاضطراب :

— والآن ... إذا وثبت من هذه النافذة فإننى أخزك !

كان مشهد الفتاة وقد توترت أعصابها وتقلصت أطرافها قاسياً ، وكان الشارع خالياً من كل إنسان والحقل ساكناً سكوناً عميقاً ، والساعة تدق الثانية بعد نصف الليل !

كل شىء نائم فى هذا الحى إلا هذين الشخصين ، وإلا أنا المتفرجة المفزعة ؛ كانت الفتاة أمامى حتى لو أننى مددت إليها بعض أصابعى لاستطعت أن أمسها وهى تقاوم الرجل بشدة وعنف

ثم انطوت على نفسها وحنت رأسها الصغير الأشقر ، واصطكت ركبتاها ، وأخذت تلهث كالحيوان التعب ؛ وكانت كلما أمسك الرجل بذراعيها ضمت فخذيها ، وكلما مس ثوبها نازعته بيديها . ولقد ظلت على حالها هذه زمناً طويلاً أكثر مما تتصور ، ولكنها غلبت أخيراً على أمرها كما غلب (كارون) الراعى وأرداه صريعاً

عند ذلك أخذت السكينة تضرب الفضاء بيدها وتتعلق ببعض النبات المزروع فوق النافذة

* * *

لم تكن الفتاة لتعلم أنها تمسك بيدها سكيناً وأنها تدفع بها للمرة الأخيرة ذلك الرجل الذى جرحها فى جسدها وفى روحها جرحاً لا يلتئم . إنها فعلت ذلك دون قصد منها ولا وعى

يا أسفا ! أى شىء هو جسد الانسان ! إنه طين رقيق مائع يسيل من ضربة واحدة !! لقد دخلت السكينة فى عنقه وخرجت تلمع من طرفه الآخر !

ثم انبثقت نافورة دم وخرجت من شقوق النافذة وانصبت على مئزرى لتروية

غص الرجل بالسكين فجحظت عيناه وفتح فماً مخيفاً ، ولم يتنفس الصعداء ، ولكنه لما وقع على وجهه ، أرسلت — هى القاتلة — فى سكون الشارع ثلاث صرخات كلها ذعر وهول . ثم تراجعت إلى الخلف وأخذت تثب فى مكانها كما يثب عصفور أسود

وأيم الله لم أسمع فى حياتى كلها صرخات تفعل بالنفس مثل صرخات الموت هذه !

* * *

أما الذى حدث بعد ذلك فإنه لا يهمك كثيراً أليس كذلك ؟

إن أمى استيقظت وهى مذعورة ، وانطلقت تبحث عنى خائفة وجلة ؛ ولما التفتت إلى سريرى ووجدته خالياً نادتنى باسمى فى جميع نواحى المنزل فوجدتنى واقفة فوق ذلك الشباك ، وثوبى ملوث بدم القتيل الأحمر فخالته دمى للوهلة الأولى ... ولكننى لم أقص عليك هذا الحادث لأبين لك هول موقفى من أمى

إن بقية الحادث وتفاصيله الدقيقة لا تزال تروى أعماق ذكراى ...

كانت سنى سبع عشرة سنة ، وفى نصف ساعة تعلمت فيها من هذه الفتاة كل شىء . أنا الطفلة التى كنت أجهل كثيراً من أمثال هذه الحقائق

تعلمت فيها كل أسرار الحياة والحب والموت وكل ما تسميه القصص بـ « الأمنية » . تعلمت منها من هو الرجل العاشق ، وأخيراً من هو الرجل الذى يموت !

يا عزيزى إذا كان كثير من الناس يجهلون لماذا فضلت أن أعيش دون شريك ، فلتكن أنت وحدك الذى يعرف سبب ذلك ! !

الأعمى الذى ارتد بصيرا

للقصصى الانجليزى أدون بو
بقلم نظمى خليل

قيل إنه ولد أعمى فانفرد فى عالم من الظلمة الطاخية منذ اللحظة التى حاول أن يرى فيها وجه أمه بعينيه المظلمتين وقلبه العامر بأشواق الطفولة الجامحة وأسرارها الخفية الغامضة ، ولكن هذه اللعنة التى قضت عليه أن يطوى حياته كلها من المهد إلى اللحد فى ظلام دامس لم يكن قد ورثها عن والديه ، فقد كانت أمه ابنة أحد سراة المزارعين على جانب كبير من الجمال ، زرقاء العينين ، دقيقة القسمات ، قوية التركيب ؛ وكان أبوه شريف الأصل كريم الأرومة لم يعرف فى حياته مثل هذه اللعنة التى حار الناس فى تعليلها والكشف عن حقيقة أمرها

ولكن الحقيقة المؤلمة هى أن صاحبنا كان إحدى هذه الضحايا فلم يشعر يوماً بأشعة الشمس اللينة إلا أنها نوع من أنواع الدفء الطبيعية ، ولم يفهم من الأزهار المتفتحة إلا أنها روائح وعطور!

أما أحبابه فقد طالما استمتع بأصواتهم الرقيقة وجلساتهم المؤنسة وحنانهم الغامر وهم يبللون خده الناعم بدموعهم السخينة الدافقة

لقد كان عالمه الخفى مليئاً بالصعاب التى طالما آذت جسمه وأدمت أطرافه . يزجر بالأصوات المرعبة والصيحات المدوية حتى أن أسنانه كانت تصطك وتتلاصق كلما لمست أطراف أصابعه الحساسة إحدى تلك النتوءات البارزة ، فالنور والظلام ، والليل والنهار ، واللون والشكل ، والأبعاد والنسب ، والجمال والقبح ، كل هذه لم تكن فى نظره إلا كلمات لا يدرك معناها

إذا كان المال عنوان الثروة ، أمكننا أن نعتبر صاحبنا من الأغنياء ؛ إلا أن العطف الذى كان يلقاه من أمه وأخته اللتين عاش معهما كان يفوق كل غنى وثروة ، فقد مات أبوه محطوم القلب ، مكلوم الفؤاد ، لأن آماله قد خابت فى ابنه الوحيد ؛ فنشأ الابن فى أحضان أمه حتى أصبح شاباً منضور الشباب ورجلاً مكتمل الرجولة مع رقة فى الروح وليونة فى الطبع ودماثة فى الخلق

لقد كانت الموسيقى بهجته فى الحياة وسلوته فى المحنة ، تضىء له جوانب نفسه المظلمة وتحمل البلسم إلى روحه الحزينة فى أشد حالات اليأس والألم ، فيغنى على أنغام البيان والقيثار فى صوت شجى مايبدد وحشته ويخفف كربه ؛ وكان صاحبنا ميالاً إلى الأدب كلفاً بالخيال منذ طفولته ، راغباً فى صحبة الإخوان ومجالسة الندمان ، يأخذ بنصيبه فى الشراب والنكتة اللاذعة والضحك الصاخب فى غير تمنع منه أو دفع من غيره

فكانت حياته مزيجاً من المأساة الدامية والملهاة المازحة ، إذ كان سعيداً راضياً ، اللهم إلا عند ما كانت تعاوده تلك الأفكار القديمة فتذكره بمصابه الأليم فينكفئ إلى بيته مهدوم الأركان متداعى البناء .

قضى الشطر الأكبر من حياته فى بيت قديم على الشاطئ يتمتع نفسه بموسيقى البحر المتجددة

ونسيمه العليل ؛ يفزع من المدن ويخشى ضجيجها ، فلم يكن لينقاد إلى كل هذه المخاوف والمثيرات . وكان كلما مضى إلى منزل أحس بشعور غريب إذ يشعر أن قدمه ستزل به وأنه سيهوى على وجهه ، أما الشوارع الصاخبة ذات الرائحة الكريهة العفنة ، فقد كانت تؤلمه وتؤذيه وتحمل إلى أذنيه الخائفتين المرتجفتين أشد أنواع العذاب

وكثيراً ما كان يضيق بحياته الراتبة فينفر إلى الجبال الشم الرواسى ، فيجد فى صمتها الرهيب الدائم تسكيناً لأحاسيسه الثائرة المهتاجة ، ولكن هذا الصمت الدائم لا يلبث أن يثقل عليه فيفزع من تلك الوحدة الموحشة ويفر من تلك العزلة المقفرة إذ يشعر أن الأفكار التى تدور فى خلده إن هى إلا أجراس تقرع فى رأسه ! ! فيأمر خادمته أن تعود به إلى البيت القديم حيث يجد فى زئير البحر ورشاش الماء الذى يصافح وجهه ويلامس يديه الهدوء والاطمئنان

هكذا قضى صاحبنا أربعة وعشرين عاماً بعد أن فقد كل أمل له فى رؤية عجائب الأرض والبحر والسماء

لقد جاءوا إليه بأساطين الطب ولكنهم جميعاً وقفوا حائرين أمام هذا المرض العجيب ، وبالرغم من ذلك فقد كان صاحبنا يحتمل كل أنواع العنت والاجهاد التى كان يعانيها فى الفحص والعلاج من أجل أمه وأخته ، وكان يشعر فى قرارة نفسه — وهو الرجل القوى دائماً — أن التشبث بالآمال الكاذبة هو اليأس بعينه ، وأن الاعتراف بالحقيقة والتسليم للواقع راحة للضمير وسلوة

وفى سن الخامسة والعشرين جاءه نبأ ذلك الطبيب الايطالى العظيم الذى شفى كثيرين ممن ولدوا عمياً ، فأرسل فرديناند صديقه ويمان ، وهو طبيب للعيون أيضاً ، ليتحقق مدى صدق هذه الاشاعة . فلما عاد ذلك الصديق تحدث إلى فرديناند عن ذلك الطبيب الشهير « بيرايرا » قائلاً : « إن بيرايرا ليس رجلاً ظريفاً ، إلا أنه ليس دجالاً كما يشيع عنه خصومه وحساده . لقد شاهدت بنفسى ... » ثم مضى يصف تلك المعجزات التى رآها بعينيه ، وهو يرغب فى معالجة فرديناند إلا أنه يشترط لهذا شرطاً واحداً

فتنهدت الأم وقالت : وهو ...

— إنه لا يضمن شفاء فرديناند شفاء تاما إن كان قد ولد هكذا . فامتقع وجه الأم ثم قالت فى صوت متهدج مضطرب : « لقد ولد أعمى »

فقال الرجل : ومع أن « بيرايرا » لم ير فرديناند إلا أنه لا يجزم بشفائه . لقد أخبرنى بما أعتقد أنه صواب ، وهو أن شفاء الانسان الذى يولد أعمى أندر ما فى الوجود حتى ليعد من المستحيل . إن فرديناند يستطيع أن يبصر إن كان قد وقع فى تلك المحنة بعد ولادته ببضع ساعات

— إنا لا نعرف بطبيعة الحال ، فأنا نفسى لم أرتب فى تلك الحقيقة المحزنة إلا بعد يومين كاملين من ولادته ، وكنت أتطلع إليه طيلة تلك المدة

— إن بيرايرا يضع نفسه تحت تصرفك ، ومع أنه رجل عظيم إلا أنى أخشى أن يكون نفعياً بعض الشىء . لقد قاسى كثيراً من البؤس والفاقة فيما مضى ، ويخيل إلى الآن أنه يحمل فى جعبته نصف الفكاهة التى تدور على ألسنة المجانين فى هذا العالم ، إلا أن هذه الفكاهة لم تزده إلا مرارة وألماً

— إنى أرحب به على أى حال إذا استطاع أن يشفى فرديناند . عليك الآن أن تسرع فى طلبه ، فمهما يكن من أمر فإن النتيجة لن تكون أسوأ مما هى عليه الآن

ثم أرسل فى طلب الطبيب ، وأسرعت الأم والأخت إلى تهيئة الشاب لهذا اللقاء المنتظر . فلما دنت الأم من الابن صاح فى صوت حزين مؤثر : « ماذا ؟ أطبيب آخر ؟ كنت أعتقد أنه لم يبق هناك أحد . ولكنه لم يأت الطبيب حتى أسلم إليه نفسه أسبوعين كاملين فى عزم قوى وصبر عجيب

وفى نهاية الأسبوعين خرج الطبيب قائلاً : هناك أمل قوى فى الشفاء . ثم اندفع فى تفاصيل علمية صحيحة لم أعِ منها إلا ألفاظاً قليلة تنم عن ثقته بنفسه ورسوخه فى ذلك العلم ، إلا أنه لم يكن فى كل ذلك بالمتفاخر أو الواثق من النجاح إذ ختم كلامه بقوله : « وأظنك تعذرنى فى هذا . ولكنى أعتقد أنك رجل تستطيع أن تحتمل حقيقة أمرك

— أجل

— تستطيع أن تحتمل شر الصدمات

— أجل ، لقد تغلبت على كثير منها

— إذن أرى لزاماً على أن أفضى إليك بما أعتقد وهو أنى أستطيع أن أعيد إليك بصرك إلا أن هذا قد لا يكون دائماً ، ثم تردد ... فقاطعه فرديناند : نعم ؟

فاستأنف الطبيب كلامه قائلاً : « إنى لا أخفى عنك الحقيقة ، وهى أن هذا الشفاء ربما يكون إلى أجل معين . فهل تستطيع أن تحتمل هذا ؟

— إن هذا ثقيل لاشك ، ولكن يمكننى احتماله

— أتدرى أثر إعادة بصرك لمدة معينة فى نفسك ؟ إنك الآن لا تفهم أثر فقدك لبصرك تماماً ، فانك لا تفكر قط فى فائدة عينيك لك ، ولكنك لو أبصرت فجأة مدة ساعات ، بل قد تكون دقائق معدودات ، ثم عدت إلى حالتك الأولى حيث لا يكون لك أمل فى الشفاء ثانية ... ثم توقف فجأة عن الكلام :

فأجابه فرديناند : إنى مستعد لأية تجربة تجريها علىّ ما دام هناك أمل فى النجاح

— إنه أمل قوى إذا قمت بما أفرضه عليك

— لك علىّ هذا

لقد كان العلاج كثير الألم بطىء السير ، فقد قضى فرديناند ستة أسابيع مستلقياً على ظهره فى غرفة مظلمة داجية ، معصوب العينين وعلى جبينه بعض الأربطة المبللة المشدودة ، وقد حيل بينه وبين الرياضة ، يتبع نظاماً خاصاً من الأكل . ولكنه احتمل هذا الوضع الشاذ المؤلم لا يتحرك ولا يذوق النوم إلا لماما ، فى شجاعة نادرة وصبر عجيب . فلم يشكُ ولم يحاول أن يفلت من العلاج يوماً ، بل لم يتجلَّ نبله ومتانة خلقه إلا فى تلك الأيام العصيبة القاسية

وفى نهاية الأسبوع السادس من العلاج لم ينزل الطبيب كعادته إلى مائدة الإفطار فذهبت الخادم تبحث منه ولكنها ما لبثت أن عادت حاملة أسوأ الأنباء ، فقد سافر الطبيب على غرة بعد أن حزم أمتعته بيديه وحملها بنفسه إلى المحطة

فاندفع الدم إلى وجهى الأم والأخت وأخذت

كل واحدة تنظر إلى الأخرى نظرة الدهشة والحيرة والذهول ، فقد نال منهما هذا الحادث حتى كاد أن يحطم قلبيهما ، فهل كانت هذه هي نهاية أحلامهما المرجوة ؟

وأخيراً قالت الخادم : « لقد وجدت هذا الخطاب ، ثم ألقته بجانب طبق الأم »

ولكن الدنيا كلها كانت تضطرب وتهتز أمام عيني المسكينة الغاشيتين ، إلا أنها استجمعت قواها وتناولت الخطاب وفضته فانبجس الدمع من عينيها وجرى على خديها فلم تستطع أن تفسر تلك السطور التي جرى بها القلم في عجلة واضطراب ، فناولته ابنتها في صمت ، ولكن الفتاة لم تكن أقل من أمها ألماً وحسرة إلا أنها تظاهرت بالجلد وأخذت تقرأ :

« الدكتور بيرايرا له أن يخجل من نفسه . فان مغادرته كانت لضرورة ملحة ، وإن واجبه نحو نفسه في تلك الفرصة النادرة التي واتته كان يحتم عليه هذا السفر الفجائي . فقد عرض عليه أحد أصحاب الملايين من الأمريكيين مائتين وخمسين ألف ريال إذا ذهب إليه لمعالجة ابنه الذي فقد بصره » ثم مضى يشرح نوع ذلك المرض الذي أودى ببصر ذلك الابن فعزاه إلى مرض بسيط يصيب العصب البصري من السهل علاجه كما يتضح هذا من قول طبيب آخر في البرازيل . وعلى ذلك وجد نفسه ملوماً إذا هو ترك هذه الفرصة الذهبية تفلت من يده .

وفضلا عن هذا فانه لم يبق له عمل مهم مع فرديناند ، فبمجرد أن تزول « اللزقة » المشدودة على الجبين يمكن فك بقية الأربطة التي على العينين ، وعندئذ يستطيع فرديناند أن يبصر إذا كان مقدراً له ذلك . ثم ختم خطابه باعادة تصريحه الأول وهو أن الشفاء قد يكون إلا إلى مدة معينة . !

فتنفست الأم والأخت الصعداء إذ لم ينعدم الأمل بعد في شفاء فرديناند . ثم ذهبتا إلى حجرة الشاب ليفضيا اليه بجملة الأمر ، فاستمع اليهما في هدوء وثبات ، وأخيراً قال : « لم يعد هناك شك في أن الرجل دجال . ولكني لن أحكم عليه بهذا حتى أعرف النتيجة ولم يبق بيني وبينها إلا بضعة أيام .

يا لها من أيام ثقيلة جافة أيام المحنة !

وأخيراً أخذت « اللزقة » تجف وتتساقط شيئاً فشيئاً ، ولكن « بيرايرا » كان قد حذرهم من فك الأربطة قبل أن تجف اللزقة كلها وتسقط عن الجبين .

وهكذا قضت تلك القلوب الثلاثة الحائرة الأيام الخمسة تعدها بالساعات والكل ينتظر ختام تلك القصة الدامية التي تعيد للمريض بصره وتدنيه من أعز ميراث للانسانية ، أو تطيح به بعيداً عن عالم النور والجمال للأبد .

فلما جاءت تلك الساعة ألفته حائراً متردداً ، فقد استولى عليه نوع من الذعر من ذلك المستقبل المجهول الذي يواجهه ، جعله يبعد يده عن الأربطة فكيف يستطيع أن يتحمل صدمة الإبصار لأول مرة فيرى عالم الناس العجيب ، أو كيف يقابل أسوأ الصدمات فيقف على تلك الحقيقة القاتلة : فقده بصره للأبد !

أما الأم والأخت فقد وقفتا بجانبه تشاهدان هذا التردد بقلوب واجفة وصبر مسلوب .

ثم ابتعد الابن بيده وقال : « لا ، إني لا أجرؤ على هذا . إني خائف ياأمي . آه ! ربما كان الأفضل لي ألا أنوء تحت هذه التجربة الخاطرة فقد كنت سعيداً

من قبل ، سعيداً على أى حال ، ولكن لو قدر لى ألا أبصر بعد هذا فلن أعرف السعادة إلى الأبد

فمدت الأم يدها ووضعتها على رأسه فى خفة وحنان فأخذها الابن بين يديه وقبلها ، ثم صاح وهو ممسك بها : إنك أنت يا أمى وكذلك أنت يا أختى اللتان قوضتا حياتى . كيف أستطيع أن أحدثكما عما فى نفسى الآن . ثم أخذ يتمتم فى صوت خافض كأنه يتحدث إلى نفسه : « هل تدركان بعض ما أنا فيه الآن ؟ إنكما لا تقدران ، وأنى لكما بهذا ؟ لقد سمعتكما تتحدثان عن الطيور والأزهار ، عن الألوان والصور ، عن الأطفال الصغار والشمس والقمر والسماء والبحر . آه ! ولكنى أستطيع أن أشم رائحة البحر وأسمع هدير أمواجه . إنى لا أخاف البحر قط ، ولكن فكري أيتها الأم ... » ثم عرته قشعريرة راجفة وهو جالس في مقعده ، ثم عاد يقول فى نغمته السابقة : « ولكن إن كان لا بد من احتمال هذه التجربة كما يجب على الرجل فانى أفضل أن أكون وحدى »

فصاحت الأم والأخت فى نفس واحد : « وحدك ! »

— ولم لا ؟ إن أفضل صلاة للإنسان هى عند ما يخلو إلى نفسه إذ يكون أقرب إلى ربه . لذلك أرى أن أكون وحيداً . لقد صليت منذ لحظة وهذا الإلهام هو الجواب . لقد قضى علىّ أن أكون وحيداً عند إجراء هذه التجربة ... أجل . أجل . الأفضل أن أفعل هذا لمواجهة تلك التجربة التى تمتحن عزمى وصبرى

وعبثاً حاولتا أن تثنياه عن عزمه فلم تجد دموعهما ولا توسلاتهما لديه شيئاً ، إذ أجابهما فى صوت المصر العنيد : « سأبقى وحيداً حتى أهيئ نفسى لمواجهة وجهيكما الحبيبين لأول مرة . يجب ألا تدخلا على حتى أبلغكما ذلك ، بل لا تحاولا أن تفتحا الباب . سأغلقه دونكما وعليكما أن تنتظرا إلى أن أدعوكما

فحاولت أمه أن تستعطفه ، ولكنه قاطعها قائلاً : « أتحبين أن أصغر فى عينى أمامك ؟ قد أصرخ أو أتوجع . لا أريد أن يطلع أحد حتى أحب الناس إلىّ على ضعفى . لا . سأكون وحيداً . إن ساعة اللقاء هذه لهى امتحان قاس لنا كلنا فلننته فيها على أى وجه ، فقد نحتاج إلى كل قوانا حالا ... »

ولما كان من عادتهما الخضوع لإرادته فقد تركاه كما أمرهما ثم تبعاه إلى الباب ، وأوصده دونهما ؛ ثم قال لهما وهو يدير المفتاح : « تذكرا ألا تدخلا على حتى أدعوكما »

ولما شعر بوحدته أخذ يفك الأربطة ولكن أصابعه كانت تضطرب ويداه تهتزان حتى أنه لم يستطع أن يحل اللفائف الأولى إلا بعد لأى

ولكن هذا الرجل الذى بقى صابراً على بلواه ربع قرن قد نفد صبره فى تلك اللحظة ، فأخذ يضرب رأسه فى أثاث الغرفة فى كفاح عنيف ، ويصرخ من شدة الألم كأنه طفل رضيع مع أنه احتمل مثل هذه التجارب من قبل في غير تشك ولا ألم . وأخيراً تمكن من انتزاع جميع الأربطة فصاح صيحة محتبسة مكبوتة !

إنه يبصر ! !

لقد شعر بأهداب عينيه الجامدة المخيفة تتحرك

إلى أعلى وإلى أسفل ؛ ولم يبق فى تلك الحقيقة الرائعة أدنى شك . لقد أبصر !

لم ير أول وهلة إلا سحابة شاحبة تتحرك فيها الأشباح الغامضة الداكنة ، ولكنه ما لبث أن وضح بصره فرأى الأشياء على حقيقتها فى صورها وأحجامها ، ثم أخذ يجول فى الغرفة يهوم بيديه فى الفضاء ويحاول أن يبطش بكل العقبات التى كان يظنها تهدده أينما سار ثم ارتمى فى أحد المقاعد بجانب النافذة مرتجف النفس متزايل الأركان

لقد حدث ما كان يخشاه ، فقد استولى عليه نوع من الذعر شديد ، فأحس أن هناك دافعاً يدفع به إلى الباب ولكن ما الباب من بين تلك الأعاجيب والألغاز التى كانت تحوطه وتغمره ؟ ثم انقض عليه بيديه وأخذ يصيح منادياً أمه وأخته ، وربما كان مستعدا لأن ينقاد إلى ذلك الدافع ويسمو إلى كرامته وكبريائه لولا أنه شعر أن كل أعضائه قد التصقت بذلك المقعد الذى كان جالساً فيه ؛ وعلى ذلك لم يكن ليستطيع أن يأتى شيئاً إلا أن يجلس ويحملق وينصت إلى تدفق الدم فى عروقه وخفقات قلبه العالية المضطربة

كان اليوم لا يزال داكناً فالبحر والسماء لا يزالان غارقين فى هذا اللون الداكن الكئيب ، فلم يستطع أن يرى من تلك النافذة إلا ذلك الجزء من الشاطئ المثلث الشكل الذى تغطيه الرمال الرمادية الداكنة ، ثم رأى سفينة تمخر البحر وتمر أمام ناظره فعجب لمرآها وحار فى فهمها، أهى عصفور يرفرف فوق الماء ؟ ثم رأى أسراباً من الطيور تحلق فى السماء الغاشية فعرفها ولكنه لم يعرف ذلك الشىء الأبيض الطافى . لقد كانت لديه معرفة نظرية عن السفن ، ولكن تلك المعرفة لم تساعده على تمييزها فى عالم الحس . لقد كانت هذه الساعة الرهيبة تحمل فى ثناياها قصة عالم غريب لرجل حديث العهد به . ثم أخذت مخاوفه تتركه ، وأخذ هدوؤه يعاوده، ولكنه لم يشعر بالرغبة فى استدعاء أمه أو أخته . لقد كان مغموراً بجو من السعادة الحسية الدافئة ففتر عقله ولم يعد قادراً على التفكير حتى أنه لم يستطع أن يربط هذه الأحاسيس بأحاسيسه السابقة ، بل لم يستطع أن يصفها فيما بعد

ثم لاحت أمامه صحيفة عصفت بها إحدى الرياح الهوج فعجب لأمرها وظنها شبحاً لرجل قادم . ثم أخذ هدير الموج يدوى ثم يختفى فى رمال الشاطئ الرابضة فيصل إلى أذنيه قوياً واضحاً . ثم رأى زبد البحر تتقاذفه المياه وتلقى به إلى الشاطئ فعرف بذلك البحر . ولكن هل البحر هو سر ذلك الصوت المدوى والزبد الطافى أو هو يشتمل على تلك البقاع الفسيحة التى تقع على أبعاد عظيمة من البصر ثم تصطبغ بتلك الألوان الأرجوانية الزاهية حتى تغيب فى ذلك الأفق الغارق فى الضباب القاتم الحزين ؟

ثم رأى أمامه شبح غلام يمرق فى تلك الرمال ويختفى ، فارتاب فى فهمه . ثم عاوده خوفه واضطرابه

لم يكن يدرى شيئاً عن المرآة . ولم يرغب فى استشارة غيره ليعرف منه ذلك لأن بيرايرا قد أوصى أمه ألا تدعه ينظر إلى مرآة حتى يقف على أسرار عالم الحس الجديد ويتعلم تقدير المسافات وانكسار الضوء لأن بيرايرا كان يعرف كثيرين ممن فقدوا عقولهم عند أول عهدهم بالإبصار

ثم مضت ساعة . فاشتد القلق على الأم حتى دفع بها إلى الباب وأخذت تدق فى خفة فسمع

دقاتها وعرف معناها وأدرك أن هـذا هو الباب . فحدجه بنظره إذ كان هذا أول عهده به . ثم أعادت القرع فأجابها من الداخل « لم أنته بعـد . إنى بخير وأستطيع الابصار . ولـكنه سمع أمه تصيح غاضبة « ولـكنك لم تنته بعد ... » فلما أحس أنها بعدت عن الباب هب واقفاً فى حذر ، ولـكنه لم يستطع أن يحتفظ بكيانه ، فهوى على يديه وركبتيه وأخذ يحبو على البساط واستولى عليـه نوع من الخوف جديد

ولـكن الخوف لم يلبث أن تركه ، وسرعان ما عاد إليه رشـده وهدوءه فهاله أمره وخشى على نفسه مغبـة ذلك التخاذل والاضطراب حتى خاف أن يؤدي به إلى فقد عقله بعد أن استعاد بصره . فنزل الهدوء على قلبـه كما تنزل قطرات الندى على الأزهار المتفتحة ، فارتجف عند شعوره التام بعظمة تلك المعجزة التي حدثت له ، فخفق قلبه ، وجف حلقه ، وأخذت أنفاسه تخرج من بين أسنانه كأنها صفير عال ، ورئتاه تتحشرجان فى صدره كأنه طائر مذبوح

ثم عادت أمه إلى القرع ، وعاد هو إلى جوابه الأول «لم أنته بعد» لقد سمعها تناديه باسمه فى شوق وحنان ، ولـكنه كان يعرف أن الوقت لم يحن بعد لمشاهدتها ، فلم يتجاسر أن يهدئ من هزة الفرح التى تثيرها فيه أمه المحبوبة لأول مرة . فعاد إلى التحديق فى البحر والسماء

قضى فى صحبة نفسه ساعتين حتى خف انفعال الخوف الذى شعر به عند ما أبصر لأول مرة ثم استلقى على الفراش بين الوسائد فى حالة من الهمود الذى يشل الارادة ثم عادت إليه أمه تناديه من جديد ولـكنه كان فى كل مرة يردها عنه فتنصاع لإرادته مرغمة حانقة . ثم اطمأن إلى نفسه وابتسم ابتسامة مشرقة عريضة ولـكن هذه الابتسامة لم تلبث أن انتزعت من وجهه انتزاعاً

ما سبب هذا ؟

لقد رفع يديه إلى عينيه ومسحهما فى خفة ورقة لأنهما كانتا لا تزالان تؤلمانه ثم اعتدل فى جلسته وأخذ يحدق النظر فى تلك الأشياء التى أمامه ، ثم أقفل عينيه وفتحهما فلاح له أن البحر والسماء أقل زرقة ووضوحاً . ولم يعد يتبين حدود الأشـياء تماماً . هل يعاوده عماه من جديد ، ؟ إنه لم يعد يشك فى هذا فقد كان منذ برهة قادراً على تمييز أشكال الأشياء وأحجامها ، أما الآن فقد فقدت لونها وشكلها ولم تعد تبدو فى نظره إلا بقعاً غامضة على منبطح من الرمال ؛ ثم إنه كان يرى الأمواج الصاخبة ترتفع وتنخفض ثم يراها تثور وتزبد وتفور على الشاطئ ثم ترتد عنه إلى مكانها الأول — كان يرى كل هذا . أما الآن ...

ثم قبع فى مكانه فى هدوء وصمت يدير عينيه فى حيرة وقلق فى الغرفة . فأصبح يرى ورق الحائط والأبسطة وكذا الصور التى على الحائط والسقف وجميع أثاث الغرفة تختفى من عينيه ويلفها الظلام الداجى !

عندئذ تذكر ما كان الطبيب الايطالى قد أخبره به وهو أن عودة بصره قد تكون إلى مدة قصيرة ربما تكون بضع ساعات أو بضع دقائق . لقد نسى هذا فى غمرة الفرح التى غمرته أولاً ، أما الآن فان الحقيقة المرعبة المميتة تظلله كسحابة كثيفة قاتمة . فلم يعد يؤمل إلا فى الموت بعد أن شالت عنه أحلام المستقبل البهيج !

يجب أن يعود ثانية إلى حياة الظلام ! يجب أن يرجع إلى وادى الظلال العميق ! لم يعد له بعد هذا القبس الضئيل إلا الظلام السرمدى !

ولم يبق له بعد الكشف عن عجائب هذا العالم إلا ليل أشد قتاماً يغمره حتى الموت ! إذ كان يشعر وهو جالس يتلوى ويتألم أن نور عينيه يخبو وشيكا وشيكا !

ثم تفجرت أعماق ذلك القلب الكبير حتى تحطمت فأخذ يصب اللعنات على ذلك القدر الملعون الذى يسخر منه إذ لم يكد يذيقه طعم الحياة الهانئة حتى حرمه منها وقد نضجت وطاب أكلها !

فصاح وهو يتحسس طريقه إلى الباب فى ذلك الظلام الذى ألفه

ثم أدار المفتاح وفتح الباب على مصراعيه ومزّق بصوته المتألم المفجوع ذلك السكون الذى كان يخيم على المنزل ثم سقط على الأرض مغشياً عليه ...

فلما عاد إليه رشده ظن أنه قد انتقل من هذا العالم إلى عالم القبر ، لأنه لاح له أنه يستطيع أن يبصر مرة ثانية ، ولكن ليس كالمرة الأولى ؛ وأحس أن نوعاً من الضوء اللامع الناعم يملأ الجو ، ورأى وجه أمه التى كانت حانية عليه كأنه شبح مخيف !

أتستطيع أن ترانى يا عزيزى ؟

— نعم . فأنا ميت الآن . أستطيع أن أبصر من جديد . فدنت منه وقبلته ثم تمتمت قائلة : « عزيزى فرديناند ، إنك حى ، إنك لا تزال فى عالمنا العزيز . إنك .. لا . لا . يجب ألا تناقشنا بل عليك أن تصدق ما نقوله لك . كان ينبغى لنا أن نعدك لهذا ولكن كيف نتنبأ به ؟ !

— لقد ظننت أنى أبصر . لقد كان هذا حلماً ثم عاودنى العمى ثانية ! فصاحت أمه : لا . لا . إنك لا تزال حافظاً لبصرك

ثم أردفت أخته قائلة : وسيبقى لك مادمت حياً !

ثم استطردت الأم : نعم . ستكون قادراً على الإبصار بعد الآن . إن ما عاودك ليس العمى ! إلهى كيف أقنعك ! إن الشمس كانت على وشك المغيب والضوء يخبو دائماً عند كل غروب . إنه لم يكن إلا ما نسميه نحن الغروب أو الليل ! ولكن كان لابد من مضى بضع ساعات قبل أن يتحقق الشاب من هذا بنفسه .

نظمى خليل

المجموعة الاولى
للرواية
١٥٣٦ صفحة
فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لموسيه ، والأوذيسة لهوميروس ، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .
الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة في جزءين
و ٢٤ قرشاً بدون تجليد
خلاف أجرة البريد

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧ ﴾